

الباب السادس والعشرون

إيطاليا قبل النهضة

١٣٠٨ - ١٠٥٧

الفصل الأول

صقلية في عهد النورمان

من أعجب الأشياء أن النورمان قد استطاعوا أن يكتفوا أنفسهم بما ينفق مع البيئات الكثيرة المختلفة التي حلوا بها من اسكتلندة إلى صقلية ، وأنهم أيقظوا بنشاطهم القوى العنيف الأقاليم والشعوب الراقدة ، وأن رعاياهم قد امتصوهم امتصاصاً كاملاً في عدد قليل من القرون حتى اختفوا من التاريخ .

لقد ظلوا مائة عام مفعمة بالاضطرابات يحكمون جنوبي إيطاليا التي كانوا فيها خلفاء للبيزنطيين ، وصقلية التي ورثوها عن المسلمين . فقد شرع روجر جسكارد Roger Guescard يغير على هذه الجزيرة بجماعة قليلة العدد من القراصنة في عام ١٠٦٠ ، فلم يحل عام ١٠٩١ حتى تم له الاستيلاء عليها ، واعترفت إيطاليا بحكمه فيها عام ١٠٨٥ ، فلما مات (١٠١١) كانت « الصقليتان » - الجزيرة وجنوبي إيطاليا - قد أصبحتا ذواتي شأن في السياسة الأوربية . وكانت سيطرة مضيق مسينا والخمسين ميلا الفاصلة بين صقلية وأفريقية ، قد أكسبت النورمان ميزات تجارية وحرية عظيمة ، وأضحت مدائن أملفي ، وسلرنو ، وبالرم مراكز للتجارة الناشطة مع ثغور البحر المتوسط بما فيها

مراكز التجارة الإسلامية في بلاد تونس وأسبانيا . وأضحت صقلية وقتئذ
إقطاعية بابوية فحولت المساجد الإسلامية كنائس فخمة زاهية ، وحل
القساوسة الروم الكاثوليك محل المطارنة اليونان في إيطاليا الجنوبية .

واتخذ روجر الثاني (١١٠١ - ١١٥٤) مدينة بالرم عاصمة للملكة ووسع
أملاكه في إيطاليا حتى ضمت نابلي وكبوا ، ورفع لقبه في عام ١١٣٠ من
كونت إلى ملك . وكان له من الطموح والشجاعة ، والدهاء وسعة الحيلة
ما لعمه ربرت جسكارد ؛ فقد كان نابها يقظاً في تفكيره ، نشيطاً في عمله
إلى حد جعل الإدريسي المسلم كاتب سيرته يقول عنه إنه قد أنجز وهو نائم
مالم ينجزه غيره من الرجال وهم أبقاط . وكان يقاومه البابوات لأنهم
يخشون اعتدائه على الولايات البابوية ، ويقاومه الأباطرة الألمان الذين
سأهم استيلاؤه على أبرزى Abruzzi ، والبيزنطيون الذين كانوا يحملون
باسترجاع إيطاليا الجنوبية ، ومسلمو أفريقيا الذين كانوا يتوقون إلى
استرجاع صقلية . وقد حارب هؤلاء جميعاً ، وكان في بعض الأحيان
يحارب عدة طوائف منهم في وقت واحد ، وخرج من حربهم ومملكته
أعظم مما كانت حين جلس على عرشها ، وقد ضم إليها أملاكاً جديدة هي
مدائن تونس ، وصفاقس ، ووهران ، وطرابلس . واستعان بمن في صقلية
من النابيين المسلمين ، واليونان ، واليهود ، لتنظيم أداة حكومية مدنية
وإيرقراطية إدارية أفضل مما كان لأية أمة أخرى في أوروبا وقتئذ . وأبقى
على نظام الزراعة الإقطاعي في صقلية ، ولكنه كبح جماح البارونات بفضل
الحكمة الملكية التي كانت قوانينها تفرض على جميع الطبقات . وقد أصلح
نظام صقلية الاقتصادي بأن جاء إليها بناسجي الحرير من بلاد اليونان ،
ووسع نطاق التجارة بتأمين الناس على حياتهم في حلهم وترحامهم وعلى
أملاكهم . ومنح المسلمين واليهود ، واليونان ، والكاثوليك حريتهم
الدينية واستقلالهم الثقافي ، وفتح أبواب المناصب العليا للدوى المواهب على
الاختلاف أديانهم وطبقاتهم ، وليس هو الثياب الإسلامية التي يلبسها رجال الدين

المسلمون ، وعاش معيشة ملك لا تبنى في بلاط شرقي . وظلت مملكته جيلا من الزمان « أغنى دول أوربا وأعظمها حضارة »^(٢) ، وكان هو أكثر ملوك زمانه استنارة^(٣) ، ولولاه لما وجد فردريك الثاني ، وهو ملك أعظم منه .

وفي وسعنا أن نعرف ما كانت عليه صقلية في عهد النورمان باطلاعنا على كتاب « جارى »^(*) للإدريسى . فقد كان فيها فلاحون أقوياء مجدون يفلحون أرضها الخصبية ويخرجون الزرع ويمنونون المدن . نعم إنهم كانوا يعيشون في أكواخ حقيرة ويعانون ما يعانیه النافعون على أيدي الماهرين من استغلال ، ولكن تقواهم المشرقة كانت تكسب حياتهم كرامة ، وأعيادهم وحفلاتهم وأغانيتهم كانت تملأ هذه الحياة بهجة وبهاء . فقد كان لكل موسم من مواسم السنة الزراعية رقصه وأغانيه ، وكان يصحب موسم جنى الكروم أعياد خمرية تجمع بين الساترناليا Saturnalia القديمة وحفلات التنكر الحديثة ، وحتى الفقراء أنفسهم بقي لهم الحب ، والأغاني الشعبية التي تختلف من الفحش والمهجاء إلى الأناشيد الشعرية الموفية على الغاية القصوى من الحنان والعفة . ويقول الإدريسى عن بلدة « شنت ماركو »^(**) (إن لها بادية ومزارع واسعة ومياه نابغة) وينبت بها من جميع جهاتها البنفسج الزكي الرائحة العطر الفاتحة .

وعادت مسينا ، وقطانيا ، وسرقوسة إلى الازدهار كعهدها أيام القرطاجنيين واليونان ، والرومان ؛ وخيل إلى الإدريسى أن بالرم « هي المدينة السنية العظمى والمحلة الهية الكبرى ، والمنبر الأعلى في بلاد الدنيا ، وإليها في المفاخر النهائية

(*) هكذا يسميه المستشرقون أما اسمه الحقيقي فهو « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وتوجد منه في دار الكتب المصرية نسخة مطبوعة في إيطاليا ومنها ترجمتها بالغة الإيطالية ، وهي التي نقلنا عنها النصوص الواردة هنا . (المترجم)

(**) هكذا يكتبها الإدريسى في نزهة المشتاق والجزء المحصور بين قوسين غير موجود في الأصل الإنجليزي ولكننا نقلناه لفائدة . (المترجم) -

القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك فى الزمان المؤتلف والسالف ،^(*) وقال عنها « ولها حسن المباني التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناءاتها ، ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها » وقال عن شارعها الأوسط : « قالسياط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، (وكثير من المساجد) والفنادق ، والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار . . . وشيدت بنيانها ونمقت بأعجب المغربات ، وأودعت بدائع الصفات ، فشهد لها بالفضل المسافرون ، وعلت فى وصفها المتجولون ، وقطعوا قطعاً ألباني أشرف من مغانها ، وأن قصورها مشارف القصور ، وأن دورها مفازة الدور . » ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبره حقول العارفين ، وهى بالجملة فتنة للناظرين »^(**) .

ولما شاهد ابن جبير الرحالة المسلم مدينة بالرمة فى عام ١١٨٤ صحاح قائلاً : لأنها أم الحضارة والجامعة بين الحسين غضارة ونضارة . . . تروق الأبصار بحسن منظرها البارح ، عجيبة الشأن . . . قد زخرت فيها للملكها دنياه . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود فى نحور الكواعب »^(†) .

وكان من يزورون بالرم يدهشون من كثرة اللغات المختلفة التى يتكلمها أهلها ، ومن اختلاط الأجناس والأديان اختلاطاً لا يعكس صفوه ما بينهم من اختلاف ، ومن تجاور الكنائس المسيحية ، والمعابد الإسرائيلية ، والمساجد

(*) هذا الوصف هو المقابل لقول المؤلف إن الإدريسي يصف بالرم بأنها أجل مدينة فى العالم . (المترجم)

(**) أضاف مؤلفنا هذا الجزء الأخير من وصف الإدريسي لبالرم فى آخر ما نقله عنه ، ولكن موضعه الصحيح من وصف الإدريسي قبل الجزء السابق . (المترجم)

(†) نقلنا هذا النص من كتاب رحلة ابن جبير المعروفة باسم « رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والناسك » تأليف أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلسنى وهو سميها بالرمة ، وتشتهر باسم المدينة ، ولكن الإدريسي يكتبها بالرم من غير تاء . (المترجم)

الإسلامية واختلاطها بعضها ببعض ، من ثياب أهلها الرشيقة ، وشوارعها الكثيرة النشاط والحركة ، وحوادثها الهائلة ، وبيوتها المريحة .

وكانت فنون الشرق تستخدم في تزيين القصور والبيوت التي يقيم بها الفاتحون من أهل الغرب . كذلك كانت أنوال بالرم تنسج الأقمشة الحريرية الفخمة والثياب المطرزة بالذهب ، وكان صناع العاج يصنعون أقداحاً صغيرة مشكولة أو محفورة ذات صور خيالية غريبة أو فنية دقيقة . كما كان صناع الفسيفساء يغطون أرض البيوت ، وجدرانها ، وسقفها بالرسوم التي تمثل موضوعات شرقية . وكان المهندسون والصناع اليونان والمسلمون يشيدون الكنائس ، والأديرة ، والقصور ، فلا يظهر في هندستها أو في زخرفها أثر للطراز النورمانى بل تجمع بين ما تركه الطراز البيزنطى أو العربى من آثار الألف العام السابقة . وشاد الفنانون اليونان في عام ١١٤٣ ديراً للراهبات اليونانيات بأموال وهما جورج أمير بحرية روجر وأهداه إلى سانتا ماريا دل أمرجليو Santa Maria dell Ammiraglio ولكنه يعرف الآن بالمرتورانا Martorana نسبة إلى مؤسسه . ولقد جدد بناء هذا الدير مراراً كثيرة حتى لم تبقى إلا القليل من عناصره التي كان عليها في القرن الثاني عشر . ويحيط بقبته الداخلية نقش عربى من ترنيمه مسيحية يونانية . وأرض الدير من الرخام البراق المختلف الألوان ، وبه ثمانية عمد من الحجر السماق الملون تحيط بأقباء ثلاث ؛ وتيجان الأعمدة منحوتة نحتاً جميلاً ؛ أما الجدران ، والأجزاء المثلثة التي بين العقود ، والقباب فتتألف فيها الفسيفساء الذهبية المشتملة على صورة شهيرة لملك الكور في قبة المحراب . وأجل من هذا الدير نفسه كنيسة القصر الخاصة Capella palatina التي بدأها روجر الثاني في عام ١١٣٢ ، فكل ما في هذه الكنيسة غاية في الرونق والجمال : من رسوم الأرضية الرخامية البسيطة ، إلى العمدة الرفيعة الدقيقة البالغة حد الكمال ، وتيجانها المختلفة الأشكال ، وقطع الفسيفساء البالغ عددها ٢٨٢ قطعة والتي تملأ كل فراغ ، وصورة المسيح الرهيبة

القائمة فوق المذبح والتي تعد من أروع ما في العالم من نقوش الفسيفساء ،
يعلو هذا كاه سقف من الخشب على شكل قرص العسل ، منحوت ،
أو مذهب ، أو مرسوم عليه بالألوان صور فيلة ، وريم ، وغزلان ،
و « ملائكة » ، أكبر الظن أنها كانت صوراً مما يحلم به المسلمون في جنات
النعيم . وليس في فنون العصور الوسطى أو الحديثة كنيسة ملكية تضارع
هذه التحفة الفنية التي هي أثنى جوهرة في صقلية النورمانية .

ومات رچار (روجر) في عام ١١٥٤ وهو في التاسعة والثلاثين من
عمره . واستحق ابنه وليم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) لقب « الخيث » ؛
ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن سيرته قد كتبها أعداؤه ، وبعضه
الآخر إلى أنه ترك مقاليد الحكم لغيره وعاش هو مترفاً منعماً بين الحصيان
والمخاطي . وثار في أيامه المسلمون في تونس على المسيحيين ، وقضوا
على سلطان النورمان في أفريقية . وعاش وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩)
عيشة أشبه ما تكون بعيشة وليم « الخيث » ، ولكن كاتب سيرته لقبوه وليم
« الطيب » ، ولعلمهم لم يكن لهم غرض من وراء هذه التسمية إلا أن يحولوا
دون اختلاط الأسماء . وأراد أن يكفّر عن انحلال أخلاقه بما أنفق من المال
في عام ١١٧٦ على دير منريل Monreale - « الجبل الملكي » -
وكنيسته وهما على بعد خمسة أميال في خارج بالرم . ويتألف بناء هذا الدير
وتلك الكنيسة من خليط مشوه من القواعد والعمد المتشابكة ؛ أما الأروقة
ف ذات قوة وجلال ، وجمال ، ونقوش الفسيفساء ذائعة الصيت رغم
فجاعتها ؛ وتيجان العمد غنية بالنقوش المحفورة التي تمثل الحياة الواقعية -
فيها نوح تَمَلِّ ونائم ، وراعى خنازير يعنى بختزير ، وبهلوان واقف
على رأسه .

ولعل ما انغمس فيه ملوك صقلية النورمان من النعيم قد أوهن بنيتهم وقصر
أجالم ، فقد ماتت أسرة روجر الثاني ميتة غير شريفة بعد أربعين عاماً من موته ،

ولم يعقب وليم الثاني أبناء فاختر للجلوس على العرش ابن غير شرعي لأحد أبناء روجر الثاني يدعى تانكرد Tancaed (١١٨٩) . وكان هنري السادس إمبراطور ألمانيا قد تزوج في هذه الأثناء من كنستانس Constance ابنة عمه وليم الثاني . وكان يتوق إلى توحيد إيطاليا كلها تحت تاج الإمبراطور ، فطالب بعرش الصقليتين ؛ وعقد حلفاً مع پيزا وجنوى اللتين كانت تجارتهما تزرع تحت سيطرة النورمان على وسط البحر المتوسط ؛ وفي عام ١١٩٤ وقف أمام بالرم بقوة عظيمة لا تقهر ، وأقنع أهلها بأن يفتحوا له أبوابها ، وتوج فيها ملكاً على صقلية . ولما مات (١١٩٧) ترك عروشه لابنه فردريك البالغ من العمر ثلاث سنين ، والذي صار فيما بعد أقوى الملوك المستبدين وأعظمهم استنارة في القرن الثالث عشر الغنى بملوكه الأقوياء .

الفصل الثامن

الولايات البابوية

كانت دولة مدينة بنفتو تقوم في شمالى إيطاليا النورمانية ، وكان يحكمها أدواق من أصل لمباردى . وكان من ورائها الأراضى التى تخضع لحكم البابوات الزمنى - « ميراث بطرس » - وتشمل أنيانى ، وتيفولى ، ورومة ، ثم تمتد من المدينة الأخيرة إلى پروجيا Perugia .

وكانت رومة مركز المسيحية اللاتينية ، ولكننا لا نستطيع أن نعدّها نموذجاً للمسيحية ؛ ذلك أنه لم تكن فى العالم المسيحى مدينة أقل منها احتراماً للدين ، إلا باعتبارها إحدى مصالحها المكتسبة ، ولم يكن لإيطاليا فى الحروب الصليبية نصيب كبير ، فلم تشترك مدينة البندقية مثلا فى الحرب الصليبية الرابعة إلا لتستولى على القسطنطينية ، ولم تكن المدن الإيطالية تنظر إلى هذه الحروب إلا على أنها فى الأغلب الأعم فرص تمكّنها من إنشاء ثغور ، وأسواق ، وتجارة فى بلاد الشرق الأدنى . وقد أجل فردريك الثانى حملته الصليبية إلى أبعد أجل مستطاع ، ثم أقدم عليها وفى قلبه أضعف قسط من العقيدة الدينية . ولسنا ننكر أنه كان فى رومة رجال ذوو روح دينية رحيمة يساعدون الحجاج على تعهد أضرحة القديسين والاحتفاظ بها ، ولكن أصوات هؤلاء الرجال لم تكن تعلو على صحب السياسة وضجيجها .

وإذا ما غرضنا النظر عن البابوية ، وجدنا رومة فى ذلك الوقت مدينة فقيرة ، فقد كان انتهاب النورمان إياها خاتمة ستة قرون من الدمار والإهمال ، نقص فيها عدد السكان إلى أربعين ألفاً أو نحوها ، وكان عددهم فى العهد القديم مليوناً . ولم تكن مركزاً للتجارة أو الصناعة ؛ وبينما كانت مدن إيطاليا الشمالية تزعم الثورة

الاقتصادية ، كانت الولايات البابوية لاتزال تتلکأ متوانية في النظام الزراعى الساذج ؛ فكانت حدائق الخضر ، والكروم ، وحظائر الماشية تحتلط بالبيوت والخربات دلخل أسوار أوريليا . وكانت الطبقات الدنيا من أهل العاصمة تعيش إما من صناعاتها اليدوية أو من الصدقات الكنسية ؛ أما الطبقات الوسطى فكانت خليطاً من التجار ، والمحامين ، والمدرسين ، ورجال المصارف ، وطلاب العلم والقساوسة المقيمين فيها أو الذين يأتون لزيارتها ؛ وأما الطبقة العليا فكانت من كبار رجال الدين وكبار الملاك الزراعيين . وكانت العادة الرومانية القديمة ، عادة امتلاك الأرض في الريف والإقامة في المدن ، لاتزال سائدة . وكان أشرف الرومان قد تجردوا من زمن بعيد من النزعة الوطنية العامة التي تولف بين قلوبهم وتدعوهم إلى الدفاع عن أنفسهم ، فانقسموا لهذا السبب شعباً وأحزاباً تزعّمها الأسر الغنية القوية - الفرنجيپاني Frangipani ، والأرسيني Orsini ، والکولنا Colonna ، والبيرليوني Pierleoni ، والکيتاني Caetani ، والسافلي Savilli ، والكرسى Carsi ، والکنتي Conti ، والأنبيلدى Annibaldi . وجعلت كل أسرة مسکنها قلعة حصينة ، وسلحت أفرادها وأتباعها ، وكثيراً ما كانت تشتبك هي وغيرها من الأسر في شجار في الشوارع ، وتشتبك من حين إلى حين في حروب أهلية . أما البابوات فلم تكن لهم إلا أسلحة روحية قلما يخشاها أحد في رومة ، وأخذوا يكافحون عبثاً ليحفظوا النظام في المدينة . وكثيراً ما كانوا يتلقون فيها الإهانات ، ويعتدى عليهم في بعض الأحيان . وفر كثير منهم إلى أناني ، أو فيتربو Viterbo أو بروچيا بل إن منهم من فروا إلى ليون وأخيراً إلى أفينيون لينجوا من الموت أو يعيشوا في هدوء وسلام .

وكان البابوات يلمون بأن يقيموا حكماً دينياً تكفي أن تكون فيه كلمة الله ، كما يفسرونها هم ، هي القانون ؛ ولكنهم وجدوا أنفسهم لاحول لهم ولاطول بين استبداد الأباطرة وألحركة الأشراف ، ودمقراطية الشعب . وحافظت بقايا السوق

الكبرى والكنيتول بين الرومان على ذكرى جمهوريتهم القديمة ، وكانت جهود تبذل من حين إلى حين لإعادة نظم الحكم الذاتي وأشكاله القديمة . وظل الأشراف القدماء يسمون الشيوخ وإن كان مجلس الشيوخ قد اختفى من الوجود . وكان القناصل ينتخبون أو يعينون ، وإن لم يكن بيدهم شيء من السلطان ، وكانت بعض مخطوطات قديمة ، نسيت أو كادت تنسى ، تحفظ للبلاد الشرائع الرومانية . وبعث قيام المدن الحرة في شمالي إيطاليا في أهل رومة روحاً جديدة ، فأخذوا يطالبون بالعودة إلى الحكم الذاتي المدني لا الديني ، واختاروا في عام ١١٤٣ مجلس شيوخ مؤلف من ستة وخمسين عضواً ، وظلوا عدة سنين بعد هذا التاريخ يختارون له أعضاء جدد في كل عام . وكانت أحوال ذلك الوقت تتطلب صوتاً يرتفع بتغييرها ، ووجدت هذا الصوت في رجل من أهل بريشيا Brescia يدعى أرنولد Arnold . وتقول الرواية المتواترة إنه درس على أبييلار Abelard في فرنسا ثم عاد إلى بريشيا راهباً ، وبلغ من زهده وتقشفه أن وصفه برنار بأنه رجل « لا يأكل ولا يشرب » . وكان شديد التمسك بالدين القويم ، ولكنه ينكر صحة العشاء الرباني إذا قدمه القساوسة المذنبون . وكان يرى أن مما يجافي القانون الأخلاقي أن يكون للقس أملاك ، ويطالب بأن يعود رجال الدين إلى الفقر الذي كان يتصف به الحواريون ، وأشار على الكنيسة بأن تنزل للدولة عن جميع أملاكها المادية وسلطانها السياسي . وأدانه إنوسنت الثاني في مجلس لاتران عام ١١٣٩ وأمره أن يلزم الصمت ، ولكن البابا أوچنيوس الثالث Eugenius III عفا عنه على شريطة أن يحج إلى عدد من الكنائس في رومة . وكان هذا خطأ كريماً من البابا ؛ لأن منظر معالم الجمهورية القديمة ألهم خيال أرنولد ، فأهاب بالرومان وهو واقف وسط خرائب المدينة بأن ينبذوا حكم رجال الدين ، ويعيدوا الجمهورية الرومانية (١١٤٥) . وافتتن الشعب بحماسته فاختر قناصل وتربوينين ليكونوا هم حكامه الحقيقيين ، وأقام طائفة من هيئة من الفرسان ليكونوا قادة

في جيش إقليمي للدفاع . وسكر أتباع آرنلد بجمرة هذا النصر الهين فلم يكتفوا بنيد سلطة البابوات الزمنية بل نبذوا أيضاً سلطة أباطرة الدواة الرومانية الشرقية الألمان في إيطاليا . ثم ذهبوا إلى أبعد من هذا فقالوا إن الجمهورية الرومانية يجب ألا تحكم إيطاليا وحدها بل أن تحكم « العالم » كما كانت تحكمه في الزمن القديم^(٥) . وأعادوا بناء الكبتول ، واستولوا على كنيسة القديس بطرس ، وأحالوها قلعة ، واستولوا على الفاتيكان ، وفرضوا الضرائب على الحجاج ؛ وفر أوجنيوس الثالث إلى فيربو وبيزا (١١٤٦) بينما كان القديس برنار يصب اللعنات من كليرفو Clairvaux على شعب رومة ، ويذكرهم بأن كيانهم موقوف على وجود البابوية ، وظلت حكومة رومة الذاتية عشر سنين تحكم مدينة القياصرة والبابوات .

واستجمع أوجنيوس الثالث شجاعته وعاد إلى رومة في عام ١١٤٨ ، وقصر واجباته وقتاً ما على الواجبات الروحية ، وأخذ يهب الصدقات ، وكسب بذلك قلوب الشعب . وغضب خليفته هديران الرابع أشد الغضب من مقتل كريدنال في شجار عام ، فأصدر قراراً بجرمان العاصمة (١١٥٥) ، وخشى مجلس الشيوخ أن تقوم في المدينة ثورة لا يستطيع الأشراف تحمل آثارها ، فالغى الجمهورية واستسلم إلى البابا . واختبأ آرنلد المطرود من حظيرة الكنيسة في كمانيا ؛ ولما أن اقترب فردريك ببرسا من رومة طلب إليه هديران أن يقبض على هذا الرجل المتمرد ؛ وكشف مخبأ آرنلد وقبض عليه ، وأسلمه الإمبراطور إلى صاحب شرطة البابا في رومة ، وسنقه (١١٥٥) . ثم حرق جثته ، وألقى برماده في نهر التير « خشية أن يجمعها الناس ويكرموها بوصفها رماداً شهيداً » كما يقول أحد معاصريه^(٦) . وعاشت آراؤه بعد موته ، وعادت إلى الظهور عند زنادقة لمباردي الباتريين Paterine والوالدنسيين Waldensian ، وعند الألبجنسيين في فرنسا ، وفي مرسلوس Marsilius من أهل يدوا ، وفي زعماء حركة الإصلاح . وظل مجلس الشيوخ قائماً حتى عام ١٢١٦ حين أفلح إنوسنت الثالث في أن

يستبدل به شيخاً أو شيخين من المناصرين لقضية البابا . وظلت سلطة البابوات الزمنية قائمة حتى عام ١٨٧٠ .

وكانت الولايات البابوية في أوقات مختلفة تشمل أمبريا Umbria بما فيها اسپليتوا Spoleto وپروجيا ؛ وأرض التخوم المشتملة على أنكوتا الواقعة على البحر الأدريايوى ، ورومانيا Romagna ، أو الإقليم الخاضع لحكم رومة والمشمول على مدائن ريمينى Rimini ، وإمولوا Imola ، ورافنا Ravenna ، وبولونيا Bologna ، وفرارا ferrare . وظلت رافنا في هذا الوقت آخذة في الانحطاط ، بينما أخذت فرارا تزداد شهرة بحكمة زعمائها من آل إست Este . وقامت في بولونيا حياة ناشطة قوية في ظل حكومتها الذاتية بزعامة رجالها القانونيين العظام خريجي جامعاتها . وكانت من أولى المدائن التي اختارت لها حاكماً ذا سلطان Podesta يتولى الشؤون الداخلية في حكومتها الذاتية ، ورئيساً Capitano ليشرف على شئونها الخارجية . وكانت تشترط فيمن يتولى الشؤون الداخلية صفات خاصة : كان يجب أن يكون من الأشراف ، وأن يكون من غير أهل المدينة ، وأن تزيد سنه على ستة وثلاثين عاماً ؛ وألا تكون له أملاك في داخل نطاق البلدة ذات الحكم الذاتي ، وألا يكون له أقارب بين الناحيين ، وألا يكون من أقارب الحاكم السابق أو من موطنه . وكانت هذه القواعد الغربية التي وضعت لتضمن النزاهة في إدارة شؤون المدينة هي المتبعة في كثير من المدن الإيطالية ذات الحكم الذاتي . أما « رئيس الشعب (قبضانه) » فلم يكن يختاره مجلس المدينة ، بل يختاره حزب الشعب الذي تسيطر عليه نقابات التجار الطائفية ؛ ولم يكن يمثل الفقراء بل كان يمثل طبقة رجال الأعمال . وقد بسط سلطانه في القرون التالية بإضعاف سلطان اليهودستا ، وذلك بعد أن تفوق رجال الطبقة الوسطى الرأسمالية على الأشراف في الثروة والنفوذ .

الفصل الثالث

البندقية تنتصر : ١٠٩٦ - ١٣١١

كان إقليم فينتو Veneto يقع إلى شمال كرارا ونهر الپو ، وكان هذا الإقليم يفخر بمدائنه الهامة - البندقية ، وترفوزو ، وپدوا ، وفيسنزا ، وفيرونا .

وفي هذا العصر بالذات عظمت قوة البندقية ، فأمكنها حلفها مع بيزنطية من أن تصل إلى ثغور بحر إيجه والبحر الأسود ، حتى ليقال إن بنيا الذين كانوا في القسطنطينية في القرن الثاني عشر زادوا على مائة ألف ، ولأنهم كانوا يشيعون الرعب في أحد أحياء المدينة بوقاحتهم ومشاحناتهم . ثم انقلب مانويل Manuel إمبراطور الروم فجاءة على البنادقة المقيمين في عاصمته ، وألقى القبض على عدد كبير منهم ، وأمر بأن تصادر بضائعهم كلها (١١٧١) ، وكان أهل جنوى هم الذين حرضوه على هذا العمل غيرة منهم وحسداً . وأعلنت البندقية الحرب ، وأخذ أهلها يعملون ليلاً ونهاراً لإنشاء أسطول ، فلما كان عام ١١٧١ قاد الدوج فيتالي ميشيلي الثاني Doge Vitale Michieli II عمارة بحرية مؤلفة من ١٣٠ سفينة لقتال جزيرة عوبية Euboea ليتخذها قاعدة بحرية لأعماله المقبلة ضد المضيقين . ولكن جنوده أصيبوا وهم على سواحل عوبية بمرض يمرض يقال إن سببه تسميم اليونان موارد الماء في الجزيرة ! وهلك منهم آلاف مؤلفة بلغ من كثرتها أن السفن لم تجد بعد ذلك من يحاربون على ظهرها . وقاد الدوج عمارته عائداً إلى البندقية ، وفشا الطاعون فيها وأهلك عدداً كبيراً من أهلها ؛ ولما أن اجتمعت الجمعية وجهت اللوم إلى الدوج على هذه الكوارث ، وأصيب بطعنة قاتلة (١١٧٢) (٧) . ومن واجبتنا ألا نغفل عن هذه الحوادث حين ندرس ما حدث في الحملة الصليبية الرابعة ، والثورة الأبحرية التي غيرت دستور البندقية .

وخشى كبار التجار أن تنهار إمبراطوريتهم التجارية إذا دامت هذه الهزائم، فعمدوا النية على أن ينتزعوا من الجمعية العمومية حق انتخاب الدوج، وأن ينشئوا مجلساً من صفوة الأهلين يكون أقدر على بحث شئون الدولة وتصريفها، وعلى الوقوف في وجه أهواء الشعب وإستبداد الدوج، ثم أقنعوا أكابر قضاة الجمهورية الثلاثة بأن يعينوا لجنة تضع للبلاد دستوراً جديداً. وأوصت هذه اللجنة في تقريرها أن يختار كل حي من أحياء دولة المدينة الستة اثنين من كبار الأهلين يختار كل منهم أربعين من خيرة الرجال، وأن يتألف من الأربعائة والثمانين عضواً الذين يختارون على هذا النحو مجلس أعظم *Maggior Consiglio* يكون هو الهيئة التشريعية العامة للأمة ثم يختار المجلس الأعظم ستين عضواً من أعضائه يكونون مجلس الشيوخ الذي يشرف على الشئون التجارية والمالية والعلاقات الخارجية. وكان من هذه التوصيات ألا تجتمع الأرنجيو *Arrengo* أى الجمعية الشعبية إلا للتصديق على اقتراحات الحرب والسلام أو رفضها، وأن يختار رجل من كل حي من الأحياء الستة يتألف منهم جميعاً مجلس خاص يحكم الدولة إذا ما أصبح عرش الدوج شاغراً، وكان لا بد من أن يقر هذا المجلس كل عمل حكوى يقوم به اللوج لكي يصبح هذا العمل مشروعاً. واختار أول مجلس أعظم انتخب بالطريقة السالفة الذكر أربعة وثلاثين من أعضائه، اختاروا من بينهم أحد عشر عضواً، عقدوا اجتماعاً علنياً في كنيسة سان ماركو اختاروا فيه الدوج (١١٧٣). ورفع الشعب عقبرته باحتجاج لحرمانه من حق اختيار رئيس الدولة، ولكن الدوج الجديد وجه الاضطراب وجهة أخرى بأن نثر النقود على الجموع المحتشدة^(٨)، ولما اختار المجلس الأعظم أنريكو دندولو *Enrico Dandolo* دوجاً في عام ١١٩٢ طلب إليه أن يقسم في يمين تنويجه أن يطيع جميع قوانين الدولة، وبهذا أضحت البحرية التجارية صاحبة السلطة العليا في البلاد.

وأثبت دندولو، وكان وقت اختياره في الرابعة والثمانين من عمره ، أنه من أقدر الزعماء في تاريخ البندقية ؛ فقد استطاعت البندقية في أيامه ، وبفضل سياسته المكثفة ، وبسالته الشخصية ، أن تثار لنفسها من الكارثة التي حلت بها عام ١١٧١ ، فقتولى على القسطنطينية ونهبها في عام ١٢٠٤ ، وبهذا أصبحت البندقية القوة المسيطرة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، والبحر الأسود ؛ وانتقلت الزعامة التجارية في أوروبا من بيزنطية إلى إيطاليا . وساعد أهل جنوى في عام ١٢٦١ اليونان على استعادة القسطنطينية ، وكوفئوا على عملهم هذا بأن منحوا فيها ميزات تجارية ؛ ولكن أسطول البندقية هزم أسطول جنوى بالقرب من صقلية بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ، وأرغم إمبراطور الروم على أن يرد إلى البندقية مركزها الممتاز في عاصمة ملكه .

وتوجت الأجركية الظافرة هذه الانتصارات الخارجية بضربة دستورية جديدة . فقد عرض الدوج بيترو جرادنجو Pietro Gradenigo في عام ١٢٩٧ على المجلس الأعظم اقتراحاً ، حمله على الموافقة عليه ، يقضى بالأختيار لعضوية هذا المجلس إلا من كان من أعضائه منذ عام ١٢٩٣ أو كان من أبنائهم الذكور^(٩) . وكان من أثر «إغلاق المجلس» في وجه المواطنين أن حرمت الكثرة الغالبة من الشعب من الوظائف العامة ، وأن وجدت طبقة مغلقة لا يستطيع الانتماء إليها إلا أبناء أعضائها . وأنشئ «كتاب زهبي» Libro d'oro لتسجيل عقود الزواج والوفيات بين أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية ليضمن به نقاءها واحتكارها للسلطان ، وبهذا جعلت الأجركية التجارية نفسها أجركية المولد . ولما أن دبر الشعب ثورة على هذا الدستور الجديد ، سمح لزعمائه بأن يدخلوا قاعة المجلس ثم شقوا من فورهم (١٣٠٠) .

ولا يسغنا إلا أن نقر بأن هذه الأجركية السافرة القاسية قد أحسنت الحكم ، فقد كانت في محافظتها على الأمن والنظام ، وفي حسن توجيهها للسياسة العامة ،

وفى العمل على استقرار القانون وبسط سلطانه ، تفضل غيرها من المجتمعات الإيطالية فى العصور الوسطى . وسبقت القوانين التى سنتها البندقية لتنظيم أعمال الأطباء والصيادلة أمثالها فى فلورنس بنصف قرن من الزمان ؛ وحرمت القوانين فى عام ١٣٠١ قيام الصناعات المضرة بالصحة بين المساكن ، وأخرجت من البندقية جميع الصناعات التى تنفث الدخان المؤذى فى الهواء . وكانت قوانين الملاحه شديدة مفصلة ، كما كانت جميع الواردات والصادرات خاضعة لرقابة الدولة وسيطرتها ، وكانت التقارير الدبلوماسية تعنى بأحوال التجارة أكثر من عنايتها بالشئون السياسية ، وأصبحت الإحصاءات الاقتصادية للمرة الأولى جزءاً من الحكم فى هذه المدينة (١٠) .

وكادت الزراعة تكون غير معروفة فى البندقية ، أما الصناعات اليدوية فكانت متقدمة لأن هذه المدينة استوردت من مدن البحر المتوسط القديمة فنوناً وحرفاً كادت تقضى عليها الاضطرابات السياسية فى الغرب ، واشتهرت مصنوعات الحديد ، والشبه ، والزجاج ، والأقشعة المنسوجة من خيوط الذهب والحرير ، واشتهرت كلها فى القارات الثلاث ، وأكبر الظن أن بناء القوارب للتنزه ، أو الاتجار ، أو الحرب كان أعظم صناعات البندقية . وقد وصلت هذه الصناعة إلى مرحلة الإنتاج الرأسمالى بالجملة ، والتمويل الجماعى ، وكادت تصل إلى المرحلة الاشتراكية لسيطرة أكبر عميل لهذه الصناعة وهو الدولة . وكانت سفائن جميلة المنظر عالية الجؤجؤ ، منقوشة الأشرعة ، فى بعضها مائة وثمانون مجذافاً تربط البندقية بالقسطنطينية ، وصور ، والإسكندرية ، ولشبونة ، ولندن ، وعشرات من المدن الأخرى بسلسلة ذهبية من المرافئ والمتاجر . وكانت بضائع من وادى الپو تصل إلى البندقية كى يعاد شحنها منها إلى الخارج ؛ وكانت بضائع مدن نهر الرين تأتيا بعد أن تجتاز جبال الألب لتنتشر من موانئها فى عالم البحر المتوسط ؛ وكان مصفق المدينة Rialto أكثر الأماكن حركة فى سائر أنحاء أوروبا ،

يزدهم بالتجار ، والملاحين ورجال المصارف القادمين من مائة قطر ، ولم تكن ثروة شمالى أوربا تضارع غناء هذه المدينة التي يرتبط كل شيء فيها بعجلة التجارة والمال ، والتي كانت السفينة الواحدة من سفنها التي ترسل إلى الإسكندرية تعود منها بربح يعادل ألفاً في المائة من المال المستثمر في بضائعها - إذا لم تلاق عدواً ، أو قرصاناً ، أو عاصفة مدمرة^(١١) . وقصارى القول أن البندقية كانت أغنى المدن الأوربية في العصور الوسطى ، ولعلها لم يكن يضارعها في ثرائها إلا المدائن الصينية التي وصفها ماركو پولو ابن البندقية وصفاً لا نستطيع تصديقه .

إلا أن العقيدة تضحل كلما زادت الثروة . ولقد كان البنادقة يكثر من استخدام الدين في الحكم ، ويواسون من لا أصوات لهم في إدارة الشؤون العامة بالمواكب ويمننهم بجنة النعيم ؛ غير أن الطبقات الحاكمة قلما كانت تسمح للمسيحية أو للحرمان من حظيرة الكنيسة بأن يعترض سبيل الحرب أو الأعمال المالية ، فقد كان شعارها « نحن بنادقة ، ونحن بعد ذلك مسيحيون Siamo Veneziani poi Cristiani »^(١٢) . وتطبيقاً لهذا الشعار لم يكن لرجال الدين نصيب ما في الحكم^(١٣) ، وكان التجار البنادقة يبيعون السلاح والرقيق ، ويمدون المسلمين الذين يقاتلون المسيحيين بالمعلومات الحربية^(١٤) . وكان شيء من التسامح يصحب هذا الحرص على الكسب المتميز بسعة الأفق ؛ فقد كان في وسع المسلمين أن يأتوا إلى البندقية وهم آمنون ، وكان اليهود - وخاصة في الجيودكا Giudecca جزيرة أسبنا لنجا Spinalunga يقيمون شعائر ديزم في معابدهم وهم آمنون .

وقد ندّد دانتى بـ « فنجور البنادقة الطليق »^(١٥) ، ولكن ليس من حقنا أن نصدق ما يوجهه من نقد رجل يصب اللعنات ذات اليمين وذات الشمال . وأكثر من أقوال دانتى دلالة على أخلاق البنادقة تلك العقوبات الصارمة الواردة

في الشرائع البندقية لتوقع على الآباء الذين يحرصون أبناءهم على الفسق ، وتلك القوانين التي تكرر وضعها بلا جدوى لمنع الارتشاء في الانتخابات (١٦) .
والصورة التي تنطبع في أذهاننا منها هي صورة أرستقراطية صارمة ساطعة اعتادت منظر بوّس الجماهير فلم تعد تتأثر به ؛ وسوقة تخفف من حدة الفقر بمباهج الحب الطليق . ونحن نسمع منذ عام ١٠٩٤ عن مواكب « الكرنفال » وذكرت « المساخر » لأول مرة في عام ١٢٢٨ ؛ وفي عام ١٢٩٦ جعل مجلس الشيوخ اليوم السابق للصوم الكبير عيداً شعبياً . يزدان فيه السكان - رجالا ونساء - بأغلى أثوابهم وأبهى زينتهم ، فكانت النساء ذوات الثراء يتوجن أنفسهن ، بتيجان أو قلانس أو عمام منسوجة بخيوط الذهب ، وتتلأأ عيونهن تحت أقنعة من نسيج الذهب أو الفضة ، وفي أعناقهن عقود من اللؤلؤ ، وفي أيديهن قفازات من جلد الشموا Chamois أو نسج الحرير ، وفي أقدامهن أخفاف أو أحذية من الجلد ، أو الخشب ، أو الفلين ، حمراء اللون أو ذهبية ؛ وأثوابهن من نسيج التيل الرفيع أو الحرير العادي أو المشجر أو المطرز ، والمنثورة ، عليه الجواهر ، يكشف عن أعناقهن وما تحت أعناقهن ، فكان بذلك فتنه لأهل زمانهن وشاهداً على ما فيه من فضائح وآثام . وكن يضعن على رؤوسهن شعراً مستعاراً ، ويستعملن الأدهان الملونة والمساحيق ، ويصمن لكن تصبح أجسامهن نجيلة رشيقة (١٧) . وكن يسرن بكامل حريتهن وسط الجماهير في أى وقت يردن ، ويشتركن في غواية وخفر في حفلات اللهو والتزهر في القوارب ، ويستمنعن في سرور إلى الشعراء الغزلين الذين أدخلوا أساليب الغناء البروفنسية في موضوعات الحب الأبدية .

ولم يكن البنادقة يميلون في هذا الوقت إلى الثقافة . نعم إنهم كانت لهم مكتبة عامة طيبة ، ولكن يبدو أنهم قلما كانوا يفتقدون منها ، ولم يسهموا بنصيب في العلوم ، ولم يخلفوا وراءهم شعراً خالداً ظهر في وسط هذا الثراء المنقطع النظير .

وكانت المدارس كثيرة عندهم في القرن الثالث عشر ، ولدينا ما يدل على أنهم كانوا يعطون الطلاب الفقراء منحاً تمكنهم من مواصلة الدرس ، ولكننا نعرف أنه كان لديهم في القرن الرابع عشر قضاة لا يعرفون القراءة^(١٨) . وكانوا يقدرون الموسيقى أعظم تقدير ، أما الفن فلم يكن قد وصل إلى الدرجة العالية التي بلغها فيما بعد ؛ غير أن الثراء كان يأتي إلى البندقية بالفن من بلاد كثيرة ، وكان ذوق الأهلين آخذاً في الارتقاء ؛ وكانت أسسه توضع في هذه الفترة وبخاصة فن الزجاج ، وقد بقي لهم بعض ما كان للرومان الآخرين من حذق فيه .

وليس من حقنا أن نصور البندقية في ذلك العصر بتلك الصورة الجميلة التي وجدها عليها فاجنر Wagner أو نتشه في القرن التاسع عشر . فقد كانت بيوتها مقامة من الخشب ، وشوارعها من الأرض العادية ؛ وإن كان طريق سان ماركو قد رصف بالآجر في عام ١١٧٢ ؛ وكان الحمام موجوداً في المدينة منذ عام ١٢٥٦ . وبدأ البنادقة يقيمون الجسور على القنوات وكان أصحاب القوارب يتقلون الناس في القناة العظمى . أما القنوات الجانبية الصغرى فالراجح أنها كانت أقل بهجة مما هي عليه الآن ؛ ذلك أن النضوج الكامل في كل شيء يتطلب بعض الوقت . غير أن ما في الشوارع والقنوات من عيوب لا يمكن أن يحجب عن العين عظمة مدينة ترتفع جيلاً بعد جيل من منافع البحر الضحل وضبابه ، أو يحول بين الإنسان وبين الدهشة من شعب يدفع هامته من الخراب والعزلة ليغطي سطح البحر بسفنه ويحبي المال ويستورد الجمال من نصف العالم .

وكانت مدينة ترفيزو Treviso وتخومها تقع بين البندقية وجبال الألب ، ولن نقول عن هذه المدينة إلا أن أهلها كانوا يحبون الحياة حباً جماً ، ويسمون بها بلد الحب ويقولون إن المدينة احتفلت في عام ١٢١٤ بعيد

قصر الحب ، فأقيم قصر من الخشب علقت فيه الطنافس والأقشة
المزركشة ، وتيجان الزهر ، وجاءت نساء المدينة فأمسكن بالقصر ومن
مسلحات بالماء المعطر ، والفاكهة ، والأزهار ، ثم أقبل الفرسان الشبان
من أهل البندقية ينافسون شباب بلدوا المرح الجريء في حصار السيدات ،
ويعطرونهن وابلا مماثلا لقتائفهن ؛ ويقال إن البنادقة كسبوا المعركة بأن
خلطوا الأزهار بقطع النقود الذهبية . ومهما يكن سبب هذا النصر فقد
سقط الحصن وحامياته الحسان في أيديهم (١٩) .

الفصل الرابع

من متوا إلى جنوى

كانت المدائن الشهيرة في لمباردية تحكم السهول الواقعة في غرب فنيتو والمحصورة بين نهر الپو وجبال الألب وهى : متوا ، وكرمونا ، وبريشيا ، وبرجامو ، وكومو ، وميلان ، وپاڤيا . وكانت في جنوب نهر الپو ، في المقاطعة المعروفة باسم إميليا Emilia في هذه الأيام ، مدائن مودينا ، ورجيو ، وپارما ، وپياسنزا ، ولسنا نعتقد أن من يجنون إيطاليا سيملون من تكرار هذه الأسماء على مسامعهم . وكانت ولاية بيدمونت Piedmont المحصورة بين لمباردية وفرنسا تضم فرسلى Vercelli وتورين ، وفي جنوبي هاتين البلدين كانت تنحى حول خليج جنوى ومدينة جنوى نفسها . وثروة هذا الإقليم هدية من نهر الپو الذى يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، يحمل المتاجر ، ويملاً القنوات ويروى الحقول . وكان نشاط الصناعة والتجارة في هذه المدن هو الذى حباها بالثروة والعزة اللتين جعلتاها تغض الطرف في معظم الأوقات عما كان للإمبراطور الألماني من سيادة اسمية عليها وأمكنها من أن تخضع الأشراف شبه الإقطاعيين المقيمين خلفها .

وكانت كنيسة كبرى تقوم عادة في وسط كل بلدة من هذه البلدان الإيطالية ، لكى تخلع البهجة والسرور على الحياة بمواكب التقى وقوة الأمل . وكان إلى جانبها مكان التعميد الدال على تمتع الطفل بمزايا المواطنة المسيحية وتبعاتها ، وبرج الأجراس التى تدعو الناس إلى العبادة أو الاجتماع أو حمل السلاح . وفي الميدان العام المجاور للكنيسة الكبرى كان الفلاحون والصناع يعرضون

بضاعتهم ، والممثلون ، واللاعبون على الحبال ونحوها ، والشعراء الجائلون يمثلون أدوارهم ، والمنادون يعلنون ما يريدون ، والمواطنون يثرثرون بعد قداس أيام الآحاد ، والشبان أو الفرسان يتبارون في الألعاب الرياضية أو الرجاس . وكانت قاعة عامة للمدينة ، وبضعة حوانيت وبيوت ومساكن مشتركة يتكون منها سياج من الآجر حول الميدان . ومن هذا المكان الوسط تمتد الشوارع المتعرجة المتلوية التي يبلغ من ضيقها أنه إذا سار فيها راكب فرس أو مرت بها عربة اضطر الراجلون إلى الانزواء في مدخل بيت أو الالتصاق بجدار . ولما تقدم القرن الثالث عشر وازدادت ثروة الأهلين استخدمت قطع القرميد في تسقيف البيوت المطلية جدرانها بالمصيص فراق منظرها في أعين من يستطيعون نسيان الوحل والروائح الكريهة . وكان الميدان والشوارع الكبرى دون غيرها هي المرصوفة ، وكان يحيط بالمدينة سور ذو أبراج وشرفات لأن الحروب كانت كثيرة في تلك الأيام ، وكان من واجب الإنسان أن يعرف كيف يقاتل إذا لم يشأ أن يكون راهباً .

وكانت ميلان وچنوى أكبر هذه المدن كلها . وكانت چنوى - الفخمة كما كان يسميها أجاؤها - ذات موقع ممتاز للعمل والمتعة . فقد كانت تقوم على تل مواجه للبحر الذي يغرى بالانجار ، وتستمع بجو الرقيرا الدافئ الذي يمتد إلى رابلو Rapallo في الشرق وسان ريمو San Remo في الغرب . وكانت چنوى منذ أيام الرومان ثغرا نشيط الحركة ، ولهذا كان سكانها تجاراً ، وصناعاً ، ورجال مصارف ، وصناع سفن ، وبحارة ، وجنوداً ، وساسة . ونقل مهندسو چنوى الماء النقي إليها من الألب الليجورية Ligurian Alps في قناة مسقفة لاتقل عن قنوات رومة القديمة ، وأقاموا حاجزاً ضخماً في الخليج المسمى باسمها ليجعلوا مرفأها العظيم آمناً في أثناء العواصف والحروب . وقلما كان أهل چنوى يعنون بالآداب أو الفنون في تلك الأيام ؛ شأنهم في هذا شأن البنادقة المعاصرين لهم ؛ فقد كانوا يصرفون جهودهم كلها في التغلب على منافسهم وارتياح سبل جديدة

للكسب . وكاد مصرف جنوى يكون هو الدولة ، فقد كان يقرض المدينة المال بشرط أن يحصل هو إيراداتها ، وكان يفضل سلطانه هذا يسيطر على الحكومة ، وكان كل حزب يتولى السلطة يتعهد بأن يكون وفياً مخلصاً للمصرف ؛ ولكن أهل جنوى كان لهم من الشجاعة بقدر ما لهم من حب الكسب ، فقد تعاونوا مع أهل بيزا على إخراج المسلمين من غربى البحر المتوسط (١٠١٥ - ١١١٣) ، ثم حاربوا بيزا حروباً منقطعة حتى قضوا على القوة المنافسة لهم في واقعة ملوريا Meloria البحرية (١٢٨٤) . وجندت بيزا في هذه الحرب الأخيرة كل من كان فيها من الرجال بين العشرين والستين من العمر ، كما جندت جنوى كل من كان فيها بين الثامنة عشرة والسبعين . وتلك حقيقة في وسعنا أن نعرف منها روح ذلك العصر وحالته النفسية . وكتب الراهب سلمبيني Salimbene في ذلك يقول « بين أهل بيزا وأهل جنوى ، وكذلك بين أهل بيزا وأهل لوكا Lucca ، من الحقد والاشمئزاز الطبيعي بقدر ما بين الآدميين والأفاعى (٢١) » . وظل الرجال يقتتلون يدا بيد في هذه الواقعة الأخيرة التي حدثت في البحر قرب ساحل قورسقة حتى هلك نصف المحاربين « وارتفعت في جنوى وبيزا أصوات الحزن والعيول كما لم ترتفع في هاتين المدينتين من يوم أنشئنا إلى أيامنا هذه » (٢٢) . ولما علم أهل لوكا وفلورنس الأخير بالكارثة التي حلت ببيزا وفلورنس ظنوا أنهم قد لاحظت لهم أحسن فرصة لإرسال حملة لقتال تلك المدينة البائسة ، ولكن البابا مارتن الرابع أمرهم أن يكفوا عن القتال ، واندفع أهل جنوى في هذه الأثناء نحو الشرق وتضاربت مصالحتهم مع مصالح البنادقة ، فنشأت بينهم أشد الأحقاد ، وتنازع أهل المدينتين في عام ١٢٥٥ على امتلاك عكا ، وناحز فرسان المستشرق في المعركة إلى جانب أهل جنوى ، كما انضم فرسان المعبد إلى البنادقة ؛ وسقط في هذه المعركة وحدها عشرون ألف رجل (٢٣) ، وكانت سبباً في تحطيم وحدة المسيحيين في بلاد الشام ، ولعلها هي التي قررت

إنخفاق الحروب الصليبية . وظل النزاع قائماً بين جنوى والبندقية حتى عام ١٣٧٩ ، حين منيت جنوى بهزيمة ساحقة لا تقل في ذلك عما لحق بييزا على يديها قبل ذلك بمائة عام .

وكانت ميلان أغنى مدائن لمباردية وأقواها ؛ وكانت من قبل إحدى العواصم الرومانية ، ولهذا كانت تفخر بقدم عهدها وتقاليدها . ذلك أن قناصل جمهوريتها قد تحدوا الأباطرة ، وأساقفتها تحدوا البابوات ، وآوى أهلها الملحدون الذين تحدوا المسيحية نفسها أو اشتركوا معهم في إلحادهم . وكان فيها في القرن الثالث عشر مائة ألف من الأهلين ، وثلاثة عشر ألف بيت وألف حانة^(٢٤) . وكانت هي مولعة بالحرية حريضة عليها ، فلم تتخل عنها راضية إلى غيرها ، وكان جنودها يطوفون بالطرق ليرغموا القوافل ، أيا كانت وجهتها ، على أن تعرج على ميلان أولاً . وقد دمرت كومو ولودي Lodi ، وحاولت أن تخضع بييزا ، وكرمونا ، وپافيا ، ولم تركز إلى السكون حتى سيطرت على جميع تجارة نهر الپو^(٢٥) . ووقف رجلان من أهل لودي أمام مجمع كنستانس عام ١١٥٤ وتوسلوا إلى فردريك بربرسا أن يحمي مدينتهم ؛ وبعث الإمبراطور إلى ميلان يحذرهما من مواصلة العدوان على لودي ؛ فرفضت المدينة رسالته في سخرية ووطئتها بالأقدام . واغتم فردريك هذه الفرصة ليحقق رغبته التي طالما تآقت نفسه إليها وهي تدمير ميلان (١١٦٢) ، ولم تمض خمس سنين على هذا التدمير حتى أعاد الباقون من أهلها هم وأصدقاؤهم بناء المدينة ، وابتهجت لمباردية جميعها بيعتها ، ورأت فيه رمزاً لتصميم إيطاليا على ألا يحكمها قط ملك ألماني . وخضع فردريك ، ولكنه قبل أن يموت زوج ابنة هنري السادس من كنستانس ابنة روجر الثاني ملك صقلية ؛ ووجدت العصبة للمباردية في ابن هنري رجلاً أشد رهبة من فردريك .

الفصل الخامس

فردريك الثاني ١١٩٤ - ١٢٥٠

١ - الصليبي المحروم

كانت كَنستانس في سن الثلاثين حين تزوجت هنرى ، وكانت في الثانية والأربعين حين ولدت ابنها الوحيد . وخشيت أن يرتاب الناس في حملها وفي شرعية طفلها فأمرت بأن تنصب خيمة في السوق العامة أيزى lesi (القرية من أنكونا) ؛ وفيها وعلى مرأى من الحاضرين جميعاً ولدت الغلام اللذى أصبح فيما بعد أكثر الناس فتنة في القرن الأخير من العصور الوسطى . وكان يجرى في عروق الوليد دم ملوك النورمان الإيطاليين ممزجا بدماء أباطرة هوهنستاوفن الألمان .

وكان في الرابعة من عمره حين توج في بالرم ملكا على صقلية (١١٩٨) ؛ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه . وأوصت قبل موتها أن يكون البابا وصيا على ابنها ، وأن يتولى تعليمه وحمايته السياسية ، وعرضت عليه في نظير ذلك راتباً مجزيا ، وأن ينوب عنه في الحكم ، وأن تعاد له السيادة على صقلية . وقبل البابا هذا العرض مسروراً ، واستخدم مركزه في إنهاء ذلك الاتحاد بين صقلية وألمانيا اللذى أقامه والد فردريك ؛ ذلك أن البابوات كانوا يحشون بحق قيام دولة كبرى تحيط بولايات البابا من جميع الجهات ، وتكون في الواقع سجناً للبابوية وصاحبة السلطان عليها . وأعد إنوسنت الكلمة لتعليم فردريك ، ولكنه أيد أتو الرابع في أن يتولى عرش ألمانيا . وشب فردريك محوطاً بالإهمال وبالفقر في بعض الأحيان ، حتى كان ذو القلوب

الرحيمة من أهل بالرم يأتون الطعام لهذا الغلام الملكي البائس (٢٦) . وكان يسمح له بأن يجرى في شوارع العاصمة المتعددة الأجناس واللغات وفي أسواقها كما يشاء ، وأن يختار أصدقاءه كما يشتهي . ولم يتناق الغلام تعليماً منتظماً ، ولكن عقله المتعطش للمعرفة كان يتعلم من كل ما يرى ويسمع ، حتى لقد دهش العالم فيما بعد من اتساع معلوماته ودقتها . فقد تعلم في تلك الأيام وبالطريقة السالفة الذكر اللغتين العربية واليونانية ، وبعض معارف اليهود ، وعرف في أيام شبابه خلقاً من شعوب مختلفة ، ذوى ملابس ، وعادات ، وعقائد متباينة ، ولم يتخل قط عن عادة التسامح التي ألّفها في صغر سنه . وقرأ كثيراً من كتب التاريخ ، وأصبح كاتباً بليغاً ومناقفاً ماهراً ، ومغرماً بالخيال والصيد . وكان قصير القامة ، قوى البنية ، « ذا وجه جميل جذاب » (٢٧) ، وشعر متلو أحمر طويل ، نشيطاً ، فخوراً ، سريع البت في الأمور . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، فصل الرجل الذي انتدبه البابا لينوب عنه في الوصاية عليه وتولى زمام الأمور بنفسه . وبلغ الحلم في الرابعة عشرة وتزوج في الخامسة عشرة من كينستانس الأرغونية Constance of Aragon ، وشرع يعمل ليسترد عرش الإمبراطورية .

وواتاه الحظ فنال بغيته ، ولكن ذلك لم يكن من غير ثمن . وتفصيل ذلك أن أتو الرابع نقض العهد الذي قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا في الولايات البابوية ، فحرمه البابا من الكنيسة ، وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فردريك الشاب الذي تحت وصايته « لأن له حكمة الشيوخ وإن كان لا يزال في سن الشباب » (٢٨) . ولكن إنوسنت ، وقد مال فجأة إلى فردريك ، لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها . ولهذا طلب إلى فردريك نظير تأييده إياه (١٢١٢) أن يتعهد له أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية ، وأن يحمى الولايات البابوية من كل عدوان ؛ وأن تظل « الصقليتان » - وهما إيطاليا الجنوبية النورمانية والجزيرة - منفصلتين

انفصالاً دائماً عن الإمبراطورية ؛ وأن يقيم في ألمانيا بوصفه إمبراطوراً عليها ،
ويترك الصقليتين لابنه الطفل هنرى ليكون مكملاً على صقلية ، وأن ينوب
عنه في حكمها نائب يعينه إنوسنت ؛ وتعهد فردريك فضلاً عن هذا كله
أن يحافظ على جميع حقوق رجال الدين وسلطانهم في دولته ، وأن يعاقب
المارقين ، وأن يحمل الصليب ويخرج إلى الحرب الصليبية ، ودخل فردريك
ألمانيا بعد أن أمده البابا بالمال اللازم لرحلته ورحلة حاشيته . وكانت
لا تزال تحت سلطان جيوش أتو . لكن هذه الجيوش منيت بالهزيمة في
بوفين على يدى فليب أغسطس ؛ فانهارت مقاومة أتو ، وتوج فردريك
إمبراطوراً باحتفال فخيم مهيب في آخن (١٢١٥) . وفيها جدد الوعد الذى
قطعه على نفسه من قبل بأن يشن حرباً صليبية . وتأثر كثير من الأمراء
بمجاسة النصر الذى ناله الشاب فأقسموا يميناً مثل يمينه . وخيل إلى ألمانيا
حيناً من الدهر أنه داود ثان بعثه الله لينقذ أورشليم بلد داود من ورثة
صلاح الدين .

لكن الأمور لم تسر بالسرعة المطلوبة ، فقد حشد هنرى أخو أتو
جيشاً ليخلع به فردريك ، ووافق هونوريوس الثالث Honorius III البابا
الجديد على أن يدافع الإمبراطور الشاب عن عرشه . وانتصر فردريك
على هنرى ، ولكنه تورط وقتئذ في الشئون السياسية للإمبراطورية ،
ويلوح أنه كان يحن إلى موطنه الأول في إيطاليا ، فقد كان دم الجنوب
وحرارة الجنوب ممتزجين بطبعه ، وكانت ألمانيا تضايقه ، فلم يقض
فيها من سنه الست والخمسين إلا ثمانية أعوام لا أكثر . وقد أعطى
البارونات سلطات إقطاعية واسعة ، ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم
الذاتى ، وعهد بحكم ألمانيا إلى إنجلترا كبير أساقفة كولونى ، وهرمان
السالزى Herman of Salza الرجل الحازم القدير كبير الفرسان التوتون .
وتمتعت ألمانيا بالسلم والرخاء في السنين الخمس والثلاثين التى تولى فيها العرش
على الرغم من إهماله الظاهرى لشئونها . وبلغ من رضاء البارونات

والإمطافة عن سيدهم الغائب أن توجوا مرضاة له ابنه هنرى البالغ من العمر سبع سنين « ملكاً على الرومان » - أى وارثاً لعرش الإمبراطورية (١٢٢٠) . وعين فردريك نفسه فى الوقت عينه نائباً فى صقلية عن هنرى الذى بقى وقتئذ فى ألمانيا . وبدل هذا العمل خطط إنوسنت تبديلاً تاماً ، ولكن إنوسنت كان قد فارق هذا العالم . وخضع هونوريوس للأمر الواقع ، ولم يكف بالخضوع له بل توج فردريك إمبراطوراً فى رومة ، لأنه كان شديد الرغبة فى أن يرحل فردريك من فوره لإنقاذ الصليبيين فى مصر . لكن بارونات إيطاليا الجنوبية ومسلمى صقلية خرجوا عليه وقتئذ ، وقال فردريك إنه لا بد له أن يعيد النظام فى مملكته الإيطالية قبل أن يخاطر بالغياب عنها زمناً طويلاً . يضاف إلى هذا أن زوجته ماتت فى ذلك الوقت (١٢٢٢) . وأراد هونوريوس أن يغريه بأن يبرّ بقسمه فأقنعه بأن يتزوج إزابلا Isabella ، وارثة عرش أورشليم الضائعة ، ووافق فردريك على هذا الزواج وأضاف لقب « ملك أورشليم » إلى لقبه الآخرين وهما ملك صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ثم أخرجت سفره مرة أخرى متاعب قامت فى المدن اللمباردية . ومات هونوريوس فى عام ١٢٢٧ واعتلى هرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة . وأخذ فردريك وقتئذ يعد العدة فى جد ، فأنشأ أسطولاً عظيماً ، وحشد أربعين ألفاً من المحاربين الصليبيين فى برنديزى ، لكن وباء مروعاً فشا فى جيشه ، مات منه آلاف ، وفرت منه آلاف أكثر منها . وأصيب بهذا الوباء الإمبراطور نفسه ، وكبير قواده لويس الثورنچيائى Louis of Thuringia . ومع هذا فقد أصدر فردريك أمره بالرحيل ، ومات لويس ، وساءت حال فردريك ، وأشار عليه أطباؤه ومن كان معه من كبار رجال الدين بأن يعود إلى إيطاليا ، فعمل بمشورتهم ، وطلب العلاج من مرضه فى پزبولى Pozzuoli . ونعد صبر البابا جريجورى ؛ فلم يستمع إلى أقوال وسل فردريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور .

وبعد سبعة أشهر من ذلك الوقت أبحر فردريك إلى فلسطين (١٢٢٨) وهو لا يزال مطروداً من حظيرة الدين . فلما سمع جريجورى بوصوله بلاد الشام أحل رعايا فردريك وابنه هنرى من يمينى الولاة لهما ، وأخذ يعمل تلخع الإمبراطور . وعد نائب فردريك فى إيطاليا هذه الأعمال إعلاناً للحرب من جانب البابا ، فهاجم الولايات البابوية . ورد جريجورى على هذا العمل بأن أرسل جيشاً لغزو صقلية ، وأشاع الرهبان أن فردريك قد مات ؛ وما لبث جزء كبير من صقلية وإيطاليا الجنوبية أن سقط فى يدي البابا . ووصل مندوبان عن البابا من رهبان الفرنسيسكان مدينة عكا بعد أن وصلها فردريك بزمن قليل ، وحرما على كل رجل فى صفوف المسيحيين أن يطبع أمر الرجل الطريد . ودهش الكامل قائد جيوش المسلمين إذ وجد حاكماً أوربياً يعرف اللغة العربية ، ويقدر الآداب والعلوم والفلسفة العربية أعظم التقدير ، فعقد صلحاً مواتياً مع فردريك ، دخل على أثره الإمبراطور بيت المقدس فاتحاً دون أن يريق فى هذا الفتح قطرة دماء . ولم يجد فردريك من رجال الدين من يرضى بتبويجه ملكاً على بيت المقدس فما كان منه إلا أن توج نفسه كنيسة الضريح المقدس . وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فردريك فى الضريح والمدينة قد دنسهما ، فحرما إقامة الخدمات الدينية فى بيت المقدس وعكا . وترامى إلى بعض فرسان المعبد أن فردريك يعتمزم زيارة المكان الذى يقال إن المسيح قد عمد فيه فى نهر الأردن ؛ فبعث برسالة سرية إلى الكامل يقول فيها إن الفرصة قد واثته لأسر فردريك . فما كان من القائد المسلم إلا أن بعث بالرسالة إلى فردريك . وأراد الإمبراطور أن ترفع اللعنة عن بيت المقدس فغادرها فى اليوم الثالث بعد التتويج وسافر إلى عكا ، وفيها أخذ عامة المسيحيين يلقون عليه الأقدار وهو خارج منها إلى سفينته (٢٩) .

ولما وصل فردريك برنديزى جيش فيها من فوره جيشاً جديداً . وزحف

به ليسترد المدن التي استسلمت للبابا . وفر جيش البابا أمامه وفتحت له المدن أبوابها ، ولم يقاوم منها إلا سورا Sora فضرب عليها الحصار حتى استولى عليها عنوة وأشعل فيها النار فدمرتها تدميرا . ووقف فردريك عند حدود الولايات البابوية ، وأرسل إلى البابا يدعوهُ إلى الصلح ، فأجاب البابا دعوته ووقعا معاهدة سان جرمانو San Germano (١٢٣٠) ، وألغى قرار الحرمان ورفرف لواء السلم إلى حين .

٢ - أعجوبة العالم

ثم وجه فردريك عنايته للشئون الإدارية ، فأخذ يعالج من مقره في فوجيا Foggia من أعمال أبوليا Apulia مشاكل دولته التي اتسعت فوق ما ينبغي أن تتسع . وزار ألمانيا في عام ١٢٣١ وأيد في « قانون لمصلحة الأمراء » ما كان هو وولده قد منحه من سلطان البارونات ؛ وذلك بأنه كان يرضى أن يسلم ألمانيا للإقطاع إذا كان تسليمه يتيح له السلم التي تمكنه من أن ينفذ ما يريدُه لإيطاليا ، ولعله أدرك أن معركة بوفين قد أنهت زعامة ألمانيا لأوروبا ، وأن القرن الثالث عشر هو عصر فرنسا وإيطاليا ؛ وقد جوزى على إهماله شئون ألمانيا بتمرد ابته وانتحاره .

واستطاع أن يؤلف بين عواطف الصقليين المتعددة وينشئ منها صرحا من النظام والرخاء يعيد إلى الأذهان مجدها في أيام روجر الثاني . فقد ألقى القبض على المسلمين النافرين المعتصمين بالجبال ، ونقلهم إلى إيطاليا ، ودرهم ليجعل منهم جنوداً مرتزقة ، فأصبحوا خير من يعتمد عليهم في جيش فردريك . وفي وسعنا أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده . وظلت بالرم حتى ذلك الوقت عاصمة الصقليتين من الوجهة القانونية ، ولكن فوجيا كانت هي العاصمة الحقيقية . وكان فردريك يحب إيطاليا جدا لا يعادله حب معظم الإيطاليين ، وكان يعجب كيف يقدر هوة فلسطين هذا التقدير العظيم وإيطاليا على ظهر الأرض ؛ وكان يسمى إيطاليا الجنوبية « قررة عينه وملجأ وسط السيول ،

وجنة وسط برية من الأشواك» (٣٠) ، وشرع في عام ١٢٢٣ يشيد في فجيا القصر الحصين الهائل الذى لم يبق منه اليوم إلا مدخله ؛ وسرعان ما قامت حول بيته مدينة من القصور يسكنها أعوانه ، ودعا أشراف مملكته الإيطالية ليكونوا وصفاء في بلاطه ، وما زالوا يرقون في خدمته حتى كان منهم عماله الذين تولوا شئون الحكومة الإدارية . وكان على رأس هؤلاء جميعاً بيرو دلى فجنى Piero delle Vigne خريخ مدرسة الحقوق في بولونيا . وقد عينه فردريك أميناً على بيت المال وأحبه كحبه ابنه أو أخاه ، وحل رجال القانون محل رجال الدين في دولا ب الحكم في باريس بعد سبعين عاما من ذلك الوقت ؛ فهنا في أقرب الدول إلى كرسى القديس بطرس انتقل الحكم انتقالا تاما من أيدي رجال الدين إلى أيدي رجال الدنيا .

وإذ كان فردريك قد نشأ في عصر الفوضى ، وتشيع بالآراء الشرقية ، فإنه لم يخطر بباله قط أن النظام المعروف باسم الدولة يستطيع المحافظة عليه بغير سلطان الملوك . ويبدو أنه كان يعتقد مخلصاً أنه إذا انعدمت السلطة المركزية القوية أهلك الناس أنفسهم ، أو افتقروا المرة بعد المرة بسبب الإجرام والجهل ، والحرب ؛ وكان مثل بربرسا يرى أن نظام المجتمع أعظم قيمة من حرية الشعب ، ويحس أن الحاكم الحازم الذى يستطيع المحافظة على النظام يستمتع بكل ما فى ملكه من نعم . وكان يسمح للشعب بقدر من التمثيل فى حكومته : فقد أنشأ جمعيات تنعقد مرتين كل عام فى خمسة مواضع من مملكته ، لتعالج المشاكل ، والشكاوى والجرائم المحلية . ولم يدع إلى هذه الجمعيات أشراف الإقليم ومطارنته فحسب ، بل كان يدعو إليها بالإضافة إليهم أربعة مندوبين عن كل مدينة كبيرة ، ومندوبين اثنين عن كل بلدة . أما فيما عدا هذا فقد كان فردريك ملكا مطلقا السلطان ، يرى أن القاعدة الأساسية التى يقوم عليها القانون الرومانى - وهى أن الأهلىن قد عهدوا إلى الإمبراطور دون غيره الحق المطلق فى التشريع -

برى أن هذه القاعدة من البدائنه التي لا تقبل الجدل . وأصدر للدولة من ملتي
Melli عام ١٢٣١ الكتاب الأعظم وهو أول مجموعة منظمة للقوانين بعد
جستيان ، وأم كتاب في فقه التشريع في تاريخ القانون كله . ويرجع أكبر
الفضل في صدوره إلى مهارة بيرودى فجنى وحسن مشورته . وكان هذا
القانون رجعيًا من بعض الوجوه ؛ فقد أقر ما في النظام الإقطاعي من
فروق بين الطبقات . وأيد ما كان للسيد الإقطاعي من حقوق قديمة على
أرقاء أرضه ، لكنه كان في كثير من النواحي قانونا تقدماً : فقد حرم
الإشراف من سلطاتهم التشريعية والقضائية ، وحقهم في سك العملة ،
وركز هذه الحقوق كلها في الدولة ؛ وألغى نظام التقاضي بالقتال أو التحكيم
الإلهي ، وأنشأ نظام المدعين العموميين المعيّنين من قبل الدولة لتعقب الجرائم
التي ظلت حتى ذلك الوقت تفلت من العقاب إذا لم يتقدم مواطن ما بعرضها
على القضاء . وندد الكتاب بالتباطؤ في إصدار الأحكام ، ونصح القضاة
بتقشير خطب المحامين ، وحتم على محاكم الدولة أن تعقد جلساتها في كل
يوم ما عدا أيام العطلة الرسمية .

وعنى فردريك كما عنى معظم الحكام في العصور الوسطى بتنظيم شئون
الاقتصاد القومي ، فحدد « ثمنًا عادلاً » لعدد من مختلف الخدمات والسلع .
وأتمت الدولة إنتاج الملح ، والحديد ، والصلب ، والقنب ، والقار ،
والمنسوجات المصبوغة ، والأقمشة الحريرية^(٣١) ؛ وأقامت الدولة مصانع
للنسيج تعمل فيها إمام مسلمات على أعين رؤساء من الحصيان^(٣٢) ؛ وكانت
تمتلك وتدير مذابح الحيوانات والحمامات العامة ؛ وأنشأت مزارع نموذجية ،
وشجعت زراعة القطن وقصب السكر ، وطهوت الغابات والحقول من
الحيوانات الضارة ، وشقت الطرق وأقامت القناطر ، وحفرت الآبار
لتزيد موارد المياه^(٣٣) . وكان الجزء الأكبر من التجارة الخارجية في يد
الدولة تنقله سفن تمتلكها الحكومة ، كان في واحدة منها ثلثائة من
الملاحين^(٣٤) . وخفضت المكوس المفروضة على التجارة الداخلية إلى الحد

الأدنى ، ولكن العوائد المفروضة على الصادرات والواردات كانت أكبر مورد من موارد الدولة . وكان ثمة ضرائب أخرى كثيرة ، لأن هذه الحكومة كانت تستطيع أن تجدد على الدوام ، كما تجد سائر الحكومات ، منافع المال . ومن بين الأعمال التي تعلى من قدر فردريك أنه وضع نظاماً سليماً للنقد روعيت فيه واجبات الشرف والأمانة .

وكان فردريك وحده سيد هذه الدولة والمدير لجميع شئونها ، وأراد أن يجعلها ذات جلال وقداسة دون أن يعتمد على المسيحية التي كانت في العادة مغاضبة له ، فبذل غاية في جهده في أن يخلع على نفسه كل ما كان يحيط بالإمبراطور الروماني من رهبة وجمال . فلم يطبع على نقوده الجميلة الشكل شعاراً أو لفظاً مسيحياً ، بل طبع حول أحد وجهيها تلك الأفضوصة Aug Cesar Rom Imp (الإمبراطور الروماني قيصر أغسطس) وطبع على الوجه الآخر النسر الروماني يحيط به اسم Fredericus (فردريكوس) . ولقن الناس أن الإمبراطور كان بمعنى ما ابن الله ، وأن شرائعه هي العدالة الإلهية مقننة ، وكانوا يشيرون إليه بلفظ Iustitia وهي كلمة تكاد تكون صيغة الغائب الثالث جديد . وكان فردريك يحرص على أن يوضع إلى جانب أباطرة الرومان في التاريخ ومعارض الفن ، فأمر المثاليين بأن ينحتوا له تماثيل من الحجارة ، وزينت رأس قنطرة في فلتورنو Volturno ، وفتحة باب في كپوا ، بنقوش من الطراز القديم تمثله هو وأعوانه ؛ ولم يبق من هذا كله إلا رأس أنثى ذو جمال بارع^(٣٥) . لكن هذه المحاولة التي بذلت قبل عصر النهضة لإحياء الفن القديم أخفقت لأن تيار الفن القوطي قد اكتسحها أمامه .

واستطاع فردريك ، رغم اقترابه من الألوهية ، وجده المتواصل في شئون الملك أن يستمتع بالحياة بمختلف نواحيها في بلاطه بفجيا . فقد كان لديه جيش من الأرقاء ، كثيرهم من المسلمين ، يقومون على خدمته ، ويشرفون على

دولاب حكومته وموظفيه . ولما توفيت زوجته الثانية تزوج بإزبلا الإنجليزية عام ١٢٣٥ ؛ ولكن إزبلا الإنجليزية لم يكن في مقدورها أن تفهم عقليته أو أخلاقه ، فأثرت الانزواء وتركت فرديريك يستمتع بعشيقاته حتى ولد له ابن غير شرعى . وكان أعداؤه يتهمون به بأنه أنشأ لنفسه « حريماً » ، كما اتهمه جريجورى التاسع باللواط (٣٧) ؛ ورد فرديريك على ذلك بقوله إنه يحتفظ بجميع أولئك النساء البيض والسود ، والغلمان لبراعتهم فى الغناء ، والرقص ، والألعاب البهلوانية ، أو غيرها من ضروب التسلية المعتادة فى بلاط الملوك . وكان يحتفظ فضلاً عن هذا كله بمديقة للحيوان البرى ، وكان يسافر أحياناً وفى صحبته عدد من الفهود ، والوشق ، والأساد ، والنمورة الرقطاء ، والقردة ، والديبة ، مسلوكة فى السلاسل يقودها عبيد من المسلمين . وكان فرديريك مولعاً باقتناص الحيوان وصيد الحيوان بالصقورة ، وجمع الطيور الغريبة ، وقد كتب لابنه مانفرد Manfred رسالة علمية فى الصيد بالزاة جديرة بالإعجاب .

وكان أعظم ما يستمتع به بعد الصيد هو الحديث الظريف المهذب — *delico parlare* ، فكان يفضل التقاء العقول الحصيفة على المبارزة بالسلاح ، وكان هو نفسه أعظم المحدثين ثقافة فى أيامه ، وقد اشتهر بفكاهته وسرعة بديهته ، وكان هو فلتير نفسه (٣٧) . وكان يتحدث يتسع لغات ويكتب سبعمائة منها ، ويراسل الكامل باللغة العربية ، ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده ، ويكتب باللغة اليونانية إلى جون فاتترز John Vatatzes زوج ابنته وإمبراطور الروم ؛ وباللغة اللاتينية إلى العالم الغربى . وكان رفاقه — وبخاصة بيرودى فجنى — يصوغون أسلوبهم اللاتينى البليغ على نمط الكتب الرومانية القديمة ؛ لأنهم كانوا يحسون بروح الكتاب الرومان الأقدمين تسرى فى نفوسهم ويعملون على محاكاة هؤلاء الكتاب ، وكادوا يكونون هم الرواد السابقين لكتاب عصر النهضة ذوى النزعة الإنسانية . وكان فرديريك نفسه شاعراً ، أننى ذاتى

على شعره اللاتيني ، وقد أدخل غزل پروقانس والشعراء المسلمين الغزلين في بلاطه ، وتعلق به ، وقلده النبلاء الشبان الذين كانوا في خدمة المليك . وكان الإمبراطور نفسه يحب أن يستريح من العناء بعد أن يقضى يوماً في تصريف شئون الملك أو الصيد أو الحرب ومن حوله النساء الحسان والشعراء يتغنون بأجاده ومفاتيح نسائه ، كما كان يفعل بعض الأمراء في بغداد .

وكان فردريك كلما تقدمت به السن يوجه قسماً متزايداً من اهتمامه إلى العلوم والفلسفة . وكان أكبر ما يبعث فيه هذه الرغبة العلمية هو التراث الذي خلفه المسلمون في صقلية . وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة ، واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين واليهود ، وأجاز العلماء على ترجمة المراجع الهامة اليونانية والإسلامية إلى اللغة اللاتينية . وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر بأن يبعث له بأحد الرياضيين الذائعي الصيت ، كما كان على صلة ودية وثيقة بليوناردو فيبوناتشي Leonards Fibonacci أعظم علماء الرياضة المسيحيين في أيامه . لكنه كان يشارك أهل زمانه في بعض خرافاتهم ، واشتغل بالتنجيم والكيمياء الكاذبة ، وأغرى ميخائيل اسكت Michael Scot الذي كان واسع المعرفة في علوم مختلفة بأن يجيء إلى بلاطه ، وأخذ يدرس معه بعض العلوم الخفية بالإضافة إلى الكيمياء ، والتعدين ، والفلسفة . وكان شغوفاً بالإطلاع في جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين في بلاطه وإلى غيرهم في البلاد النائية كصر ، وبلاد العرب ، والشام والعراق . وكانت لديه حديقة للحيوان يتخذها للدرس لا للهو ، ونظم تجارب علمية في تربية الدجاج ، والحمام ، والحيل ، والجمال ، والكلاب ، ووضع قوانين لتحريم الصيد في مواسم معينة قائمة على أساس سجلات دقيقة خاصة بمواسم الزواج والتوالد عند الحيوان حتى قيل إن حيوانات أبوليا كتبت إليه تشكره على حسن صنيعه . وقد تضمنت شرائعه تنظيماً مستثيراً لمهنة الطب ، والجراحات

الطبية وبيع العقاقير . ولم يكن يرى حرباً في تشريح جثث الموتى ، وكان الأطباء المسلمون يعجبون من سعة علمه بالتشريح . أما الفلسفة فحسبنا دليلاً على واسع علمه بها أنه طلب إلى بعض علماء المسلمين أن يفسروا ما بين آراء أرسطو والإسكندر الأفروديسي من تناقض في خلود العالم . ولقد حياه ميخائيل اسكت بقوله : « أيها العاهل المحظوظ ، إنى لقوى الاعتقاد بأنه لو كان في مقدور رجل ما أن يفر من الموت بعلمه لكنك أنت ذلك الرجل » (٢٨) .

وكان فردريك يخشى أن تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، فأنشأ في عام ١٢٢٤ جامعة نابلي - وهي أنموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة إلى موافقة السلطات الدينية على إنشائها . وقد استدعى إليها علماء متبحرين في جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ، ورتب إعانات مالية ليتمكن الناهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرّم على شباب مملكته أن يخرجوا منها في طلب التعليم العالي ، وكان يأمل أن تنافس نابلي بعد وقت قصير مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرّب الناس على أعمال الإدارة العامة .

وبعد فهل كان فردريك بمن ينكرون وجود الله ؟ لقد كان في شبابه من الأتقياء الصالحين ، ولعله ظل مستمسكاً بالعقائد الأساسية في الديانة المسيحية إلى أيام حربه الصليبية . ثم يبدو أن اتصاله الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية . وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدراً من أفكار المسيحيين ومعارفهم أيامه . وما يدل على ذلك أنه لما عقد مجمع الأمراء الألمان في فريولي Friuli (١٢٢٢) استقبل وقدأ من المسلمين أحسن استقبال ، ثم اشترك على رأى من الأساقفة والأمراء مع هؤلاء المسلمين في ولجة أقيت للاحتفال بأحد الأعياد الدينية الإسلامية (٣٩) . ويقول عنه ماثيو باريس Matthew Paris : « ويقول أعداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد

ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى . . . وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين»^(٤٠). وشاعت عنه شائعة صدقها جريجورى التاسع تهمه بأن قال إن «ثلاثة من المشعوذين ساقوا بدعائهم أهل زمانهم ليسودوا بهم العالم - موسى ، وعيسى ، ومحمداً!». ودوى هذا السباب والكفران فى جميع أنحاء أوربا ، وأنكر فردريك التهمة ، ولكنها ساعدت على نفور الرأى العام منه فى آخر أزماة حياته . وما من شك فى أنه كان حر الفكر إلى حد ما ، فقد كانت لديه شكوكه فى العقيدة القائلة بأن العالم خلق دفعة واحدة فى زمن معين ، وفى خلود الفرد ، وفى ولادة العنراء ، وفى أمثالها من العقائد الواردة فى الدين المسيحى^(٤٢) . وقال حين رفض مبدأ التحكيم الإلهى : «منذا الذى يصدق أن الحرارة الطبيعية الكامنة فى الحديد المتوهج تبرد من غير سبب كاف ، أو أن عنصر الماء يرفض قبول (نعم) المتهم لأنه ميت الضمير»^(٤٣) . ولم ينشئ فى حياته كلها إلا كنيسة واحدة .

وقد منح جميع أصحاب العقائد المختلفة فى مملكته حرية العبادة ببعض القيود ، فقد كان الروم الكاثوليك ، والمسلمون ، واليهود يمارسون شعائر دينهم دون أن يصيبهم أذى ، ولكنهم لم يكن فى مقدورهم (إلا فى حالة واحدة) أن يدرّسوا فى الجامعة ، أو أن يرقوا إلى منصب رسمى فى الدولة . وكان يحتم على جميع المسلمين والعبرانيين أن يرتدوا ثيابا تميزهم عن المسيحيين ، وألزم المسلمين واليهود بأن يؤدوا نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ضريبة القرضة التى كان الحكام المسلمون يفرضونها على المسيحيين واليهود . وكانت شرائع فردريك تعاقب من يعتنق الدين اليهودى أو الإسلامى من المسيحيين أشد العقاب ، غير أنه لما اتهم يهود فلدا Fulda فى عام ١٢٣٥ بأنهم يقتلون طفلا مسيحياً ليستخدموا دمه فى عيد فصيحهم هب فردريك لإنقاذهم ، وكذب القصة وقال إنها خرافة اخترعها غلاظ القلوب ، وكان عنده فى بلاطه عدد من العلماء اليهود^(٤٤) .

وأشد ما يلاحظ من تناقض في حكم هذا المليك الذى يجرى على سنن العقل هو اضطهاده الإلحاد والملحدين . ذلك أن فردريك لم يكن يسمح فى بلاده بحرية التفكير أو القول لإنسان ما حتى أساتذة جامعتة ، بل اختص نفسه ورفاقه دون غيرهم بهذه الميزة ، فقد كان كعظم الحكام يرى أن الدين ضرورى لا غنى عنه للنظام الاجتماعى ، ولم يكن يقبل أن يقوض علماءه دعائمه ؛ يضاف إلى هذا أن القضاء على الإلحاد ييسر قيام السلام المتقطع مع البابوات ؛ وجرياً على هذه السياسة أيد فردريك محكمة التفتيش كل التأييد على حين أن بعض الملوك فى القرن الثالث عشر ترددوا فى معاونتها ، وبذلك اتفق البابوات هم وعلومهم الألد فى هذه المسألة وحدها .

٣ - النزاع بين الإمبراطورية والبابوية

وأخذت أهداف فردريك البعيدة الواسعة المدى تزداد وضوحاً كلما تقدم حكمه فى فوجيا : كان يبغي أن يبسط سلطانه على إيطاليا بأجمعها ؛ وأن يوحد إيطاليا وألمانيا تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ، ولعله كان يبغي أيضاً أن يجعل رومة كما كانت قبل عاصمة العالم الغربى السياسية والدينية معاً . ولما أن دعا الأعيان الإيطاليين والمدن الإيطالية إلى مجمع فى كرمونا Cremona عام ١٢٢٦ كشف عن أغراضه بأن أرسل الدعوة أيضاً إلى دوقية اسبليتو ، وكانت وقتئذ ولاية بابوية ، وبأن سير جنوده فى أراضى البابوات . وأمر البابا أعيان اسبليتو ألا يحضروا الاجتماع . وارتابت مدن لمباردية فى الدعوة فرأت فيها وسيلة يبغي بها فردريك أن يخضعها للإمبراطور خضوعاً حقيقياً لا خضوعاً اسمياً فحسب ، فأبت أن ترسل مندوبين عنها إلى الاجتماع ؛ ولم تكنف بهذا بل ردت على هذه الدعوة بأن ألقت العصبة للمباردية الثانية التى تعهدت فيها مدائن ميلان ، وتورين ، وبرجامو ، وبرشيا ، ومانتوا ، ويولونيا ، وفيسنزا ،

وقبرونا ، وبدوا ، وتَفِزُوا أن تعقد فيما بينها حلفاً دفاعياً هجومياً يدوم
حسباً وعشرين سنة ؛ وبهذا لم يجتمع المجمع قط .

وخرج هنرى على أبيه فردريك فى عام ١٢٣٤ ، وتحالف مع العصبة
اللمباردية ، فركب فردريك من جنوبى إيطاليا إلى رمز Worms وليس معه
جنود ، بل كان معه بدلاً منهم مال كثير ؛ وخذت الفتنة حين ترامت إلى
القائمين بها أخبار قلوبهم أو حين مست أيديهم ذهبه ؛ وزج هنرى فى
السجن ، وظل يكتب بناره سبع سنين ؛ وبينما كان يتقل إلى مكان آخر
يجبس فيه ، عدا بجواده فوق جرف عال وهوى إلى أسفله جثة هائلة .
وواصل فردريك سيره إلى ميز ، ورأس فيها مجعاً ، أقنع فيه كثيرين
من النبلاء الحاضرين أن ينضموا إليه فى حملة يعيد بها سلطة الإمبراطورية
على لمباردية . واستطاع بفضل هذه المعونة أن يهزم جيش العصبة اللمباردية
(١٢٣٧) ؛ واستسلمت له جميع مدنها ما عدا ميلان وبريشيا ، وعرض
جريجورى التاسع وساطته بين الطرفين ، غير أنه لم يكن من المستطاع التوفيق
بين آمال فردريك فى الوحدة وحب الإيطاليين الحرية .

وقرر جريجورى فى هذه الساعة الفاصلة أن ينضم إلى جانب العصبة ،
وأن يجعل مصير سلطة البابوات الزمنية موقوفة على نتيجة هذه الحرب ،
مع أنه كان وقتئذ رجلاً مريضاً فى سن التسعين . ولم يكن جريجورى ، مولعاً
بحب المدن اللمباردية ، فقد كان مثل فردريك يرى أن حريتها هى الطريق
المؤدى إلى النزاع والقوضى ، ويعرف أنها تأوى الملحدون الذين يعارضون
جهرة فى ثروة الكنيسة وسلطته الزمنية . وفى هذا الوقت بالذات كان
الملحدون من أهل ميلان المحاصرة يدنسون مذابح الكنائس ويقلبون
الصلبان التى تحمل صورة المسيح^(٤٥) . ولكن جريجورى كان يعتقد أنه
إذا تغلب فردريك على هذه المدن ، ابتعت إيطاليا الموحدة الولايات
البابوية ، وتآلفت منها كلها إمبراطورية موحدة يسيطر عليها علو
للمسيحية وللكنيسة . ولهذا أقنع جريجورى مدينتى البندقية وجنوى

بالانضمام إليه هو والعصبة في حرب يشنها على فردريك ؛ ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة ، أنهم فيه فردريك بالكفر ، والتجديف ، والاستبداد ، وبالرغبة في القضاء على سلطة الكنيسة ، ثم حرمه في عام ١٢٣٩ ، وأمر كل مطران من مطارنة الروم الكاثوليك أن يعلن أنه خارج على القانون ، وأعطى رعاياه من يمين الولاة التي أقسموها له . ورد فردريك على هذا برسالة دورية بعث بها إلى ملوك أوربا ينفي فيها تهمة الكفر ، ويتم البابا بأنه يريد أن يخضع جميع الملوك لسلطان البابوية ، وأخذ النزاع الأخير بين الإمبراطورية والبابوية يجرى في مجراه .

وأظهر ملوك أوربا عطفهم على فردريك ، ولكنهم لم يهتموا بما طلبه إليهم من معونة . كذلك انحاز أعيان ألمانيا وإيطاليا إلى جانبه ، لأنهم كانوا يرجون أن يعيدوا مدينتيهم إلى طاعتهم الإقطاعية ؛ أما في المدن نفسها فقد انحازت الطبقتان الوسطى والدنيا بوجه عام إلى جانب البابا ، وعادت إلى الوجود عبارتا وبلنج وولف Waibling and Welf بعد أن تحولتا إلى لفظي جبيلين وجلف Ghibelline and Gulf ليدل أول اللفظين على أنصار الإمبراطورية ، والثاني على المؤيدين للبابوية . ولم تخل رومة نفسها من هذا الانقسام ، فقد كان فيها كثيرون من المؤيدين لفردريك ؛ ولما أن اقترب من رومة بجيش صغير أخذت المدن واحدة بعد واحدة تفتح له أبوابها لأنها رأت فيه قيصراً ثانياً . وتوقع فردريك أن يلتقي القبض عليه ، فاخترق العاصمة على رأس موكب حزين من رجال الدين . وتأثرت قلوب الرومان بشجاعة البابا الشيخ وضعفه ، وعمد الكثيرون منهم إلى أسلحتهم للدفاع عنه . ولم يشأ فردريك أن يحسم الموقف في ذلك الوقت ففر برومة دون أن يعرج عليها وقضى الشتاء في فيجيا .

وكان قبل ذلك قد أقنع الأمراء الألمان بأن يتوجوا ابنه كثراد ملك الرومان (١٢٣٧) ، ووضع زوج ابنته على رأس حكومة فيسنزا ، وبدوا ،

وتريفيزو ، كما وضع على رأس حكومة المدن الأخرى التي استسلمت له
انزيرو أحب أبنائه إليه وهو « صورة منافي وجهه وقوامه » ، فقد كان
وسياً ، فخوراً ، مرحاً ، شجاعاً في الحرب ، بارعاً في قول الشعر .
واستولى الإمبراطور على رافنا وفانزا في عام ١٢٤٠ ، ونخب في عام
١٢٤١ بنفتمر مركز القوات البابوية . واعترض أسطوله قافلة بحرية من
جنوى تنقل إلى رومة طائفة من الكرادلة ، والمطارنة ، وروساء الأديرة ،
والقساوسة الفرنسيين والأسبان والإيطاليين ، وحجزهم فردريك في أبوليا
ليتخدمهم رهائن يساوم بهم ، وما لبث أن أطلق الفرنسيين منهم ، ولكنه
أطال احتجاز الباقين ، ومات عدد منهم في السجن ، فارتاعت أوروبا التي
طالما رأت أن رجال الدين محصنون يجب ألا يعتدى عليهم ، وكثر وقتئذ
عدد الذين يعتقدون أن فردريك هو المسيح الدجال الذي تنبأ بظهوره يواقيم
الفلورى Joochim of Flora الصوفي منذ بضع سنين . وعرض فردريك
أن يطلق رجال الدين إذا رضى جريجورى أن يعقد معه الصلح ولكن البابا
لم يتزحزح عن موقفه إلى يوم مماته (١٢٤١) .

وكان إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه ، فقد وافق بتحريض القديس
لويس على شروط للصلح (١٢٤٤) ، ولكن مدن لمبارديا امتنعت عن التصديق
على الاتفاق ، وذكرت إنوسنت بأن جريجورى قد تعهد بالأتعقد البابوية صلحاً
سفردا مع فردريك . وغادر إنوسنت رومة سراً ، وهرب إلى ليون Lyons ،
وواصل فردريك الحرب ، وبدا أن ليس ثمة قوة تستطيع منعه من فتح الولايات
البابوية وضمها إلى دولته وإقامة سلطانه في رومة . ودعا إنوسنت رجال الدين
إلى مجلس عقد في ليون ، وكرر هذا المجلس حرمان الإمبراطور وخلعه لأنه رجل
فاسد الأخلاق ، عاق ، وتابع عديم الولاء لسيد البابا الذي يقر بسيادته عليه
(١٢٤٥) . واختار النبلاء الألمان ، بتحريض البابا ، هنرى رابس Henry Rapse
إمبراطوراً بدل فردريك ، فلما مات نادوا بوليم الهولندي William of Holland

خلفاً له . وأصدر البابا قراراً بحرمان كل من يساعد فردريك ، وحرمت الخدمات الدينية في كل الأقاليم الموالية له ؛ وأعلنت عليه هو ولانزيو حرباً صليبية ، ومنح الذين حملوا الصليب للقتال في فلسطين إذا اشتركوا في قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التي تمنح الصليبيين .

وأطلق فردريك العنان لحقده وشهوة انتقامه ، وأقدم على أعمال قطعت عليه خط الرجعة . فأصدر « منشوراً للإصلاح » يعلن فيه أن رجال الدين « عبيد للدنيا منهمكون في ملذاتهم ، لم تبق ثروتهم المتزايدة على شيء من تقواهم » (٤٦) . ثم صادر ما للكنيسة من أملاك في الصقليتين ليستخدم ثمنها في حربه ، ولما أن تزعمت بلدة في أبوليا مؤامرة للقبض عليه ، أمر برؤساء المتآمرين فاقتلعت عيونهم وبترت أعضائهم ثم قتلوا . ولما أن استنجد به ابنه كتراد ، اتخذ سبيله إلى ألمانيا ، ولكنه علم وهو في تورين أن پارما قد انتصت على حاميتها التي بها ، وأن الخطر محقق بلانزيو ، وأن الثورة قد اندلعت لهبها في إيطاليا الشمالية كلها وصقلية نفسها ، فأخذ يقلم أظفار فتنة بعد فتنة في مدينة تلو مدينة ، ويأخذ الرهائن من كل واحدة منها ، ويقتل أولئك الرهائن حين تثور عليه مدنها . وإذا وجد في الأبرى رسلاً للبابا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم (٤٧) .

وبينا كان الحصار مضروباً على پارما ستم فردريك طول البطالة فخرج هو ولانزيو وخمسين من الفرسان لصيد طيور الماء في المستنقعات المحاورة للمدينة . وبينما هم في صيدهم خرج رجال پارما ونسأوها على المحاصرين وهجموا عليهم هجوم اليائسين ، فتغلبوا على قوات الإمبراطور المختلة النظام المعلومه القيادة ، واستولوا على أموال الإمبراطور وحریمه ووحوشه ، فما كان منه إلا أن فرض ضرائب فادحة ، وجهاز جيشاً جديداً ، وواصل القتال . وجاءته الأنباء بأن پيرو دلي فجنى وزيره الأول وموضع ثقته قد غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده ؛ فأمر بالقبض عليه وفقء عينيه ، فما كان من پيرو بعد أن فعل به هذا إلا أن أخذ يضرب

برأسه جدران سجنه حتى مات (١٢٤٩). وجاءته الأنباء في تلك السنة نفسها أن سكان بولونيا قد أسروا إنزويو في المعركة التي قامت عند لافسالتا La Fossalta ، وحدث في الوقت عينه أن حاول طبيب فردريك أن يقتله بالسم ؛ وحطمت هذه الضربات المتوالية السريعة روح الإمبراطور ، فارتد إلى أبوليا ولم يشترك بعدئذ في الحرب القائمة . وانتصر قواده في عدة معارك عام ١٢٥٠ ، ولاح أن الحظ قد عاد يواتيه . فقد طلب القديس لويس وهو في أسر المسلمين في مصر إلى إنوسنت الرابع أن يضع حداً للقتال حتى يستطيع فردريك أن يخف لنجدة الصليبيين . ولكن صحة الإمبراطور أخذت في الوهن ولم تفدها هذه الآمال المنعشة ، فقد حطم الزحار - وهو البلية التي طالما أذلت ملوك العصور الوسطى - ، جسم الإمبراطور المنغطرس . وطلب أن تغفر له ذنوبه ، فأجيب إلى طلبه ، ولبس الإمبراطور الملحد مسوح الرهبان السترسيين ، ومات في فلورنتينو في الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠ . وتهامس الناس بأن روحه قد حملها الشياطين واخترقت بها فوهة بركان إتنا إلى الجحيم .

ولم يظهر بعد موته ما له من نفوذ ، فسرعان ما انهارت إمبراطوريته ، وتفتشت فيها الفوضى أشد مما كانت عليه حين جلس على عرشها . واختفت الوحدة التي قضى حياته يحارب من أجلها حتى من ألمانيا نفسها ، وسارت المدن الإيطالية في ركب الحرية وقوتها الناشطة المبدعة ، وسلكت طريق الفوضى ، فأدى بها إلى استبداد الأذواق والزعماء اللصوص الذين ورثوا ، وهم لايكادون يدركون ، فساد فردريك الخلقى ، وحرية الفكرية ، ومناصرته الآداب والفنون . والحق أن ما كان يتصف به طغاة عصر النهضة من ذكاء قوى مجرد من الضمير كان صدقاً لخلق فردريك وعقله خالياً من ظرفه وفتنته . وإنا لنستبين في تفكير فردريك وفي حاشيته حلول الكتب اليونانية والرومانية القديمة محل الكتاب المقدس ، والعقل محل الإيمان ، والطبيعة محل الله ، والضرورة محل العناية الإلهية ،

ثم استولت هذه النزعة بعد فترة من الاستمساك بالدين على عقول فلاسفة النهضة وكتابها الإنسانيين . وملاك القول أن فردريك كان « رجل النهضة » قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام . نعم إن مكيفلى كان يتحدث في كتاب **الأمير** وفي عقله سيزارى بورجيا **Coesar Borgis** ولكن فردريك هو الذى مهد السبيل لفلسفة كتاب الأمير . وكذلك كان تنشئة ينظر بعين فكره إلى بسمارك وناپليون ، ولكنه لم يكن ينكر أثر فردريك - « أول من يوافق هواى من الأوربيين » (٤٨) . وقد ارتفعت الأجيال التى جاءت بعده بأخلاقه ، وافتتحت بعقله ، وقدرت بعض التقدير عظمة مطامعه الإمبراطورية ، فوصفته المرة بعد المرة بالصفات التى ابتدعها ماثيو باريس حين قال عنه إنه الرجل « العجيب الذى بدل العالم وأثار عجبه . **super mundi et immutator mirabilis** .

الفصل السادس

تمزق إيطاليا

أوصى فردريك لابنه كتراد بعرش الإمبراطورية ، وعين مانفرد Manfred ابنه غير الشرعي نائباً عن الإمبراطور في إيطاليا ، وشبت نار الفتنة في كل مكان تقريباً في إيطاليا ، وخضعت نابلي ، واسپليتو ، وأنكونا ، وفلورنس لمبعوثي البابا ، ونادي إنوسنت الرابع : « فلتبتهج السماء ولتفرح الأرض ! » وعاد البابا منتصراً إلى إيطاليا ، واتخذ نابلي مقر قيادته الحربية ، وزحف منها ليضم الصقليتين إلى الولايات البابوية ، ووضع الخطة ليفرض على مدن إيطاليا الشمالية سيادة أقل سفوراً من سيادته على تلك الولايات . ولكن هذه المدن عقدت العزم على أن تحمي استقلالها من البابوات والأباطرة على السواء ، وإن رضيت أن تشترك مع البابا في الصلوات . وكان إزليو Ezzilino وأبرتر پلافيسينو Uberto Pallavicino يسيطران على عدد من المدن ويدينا فيها بالولاء لكتراد . ولم يكن في قلب كلا الرجلين شيء من الاحترام للدين ، فنشأ الإلحاد في أيامهما ، وكان يخشى أن تفقد الكنيسة شمالي إيطاليا كله . وهبط كتراد الشاب فجاءة بجيش جديد من جبال الألب ، وأعاد فتح البلدان الإيطالية المتنمرة ، ودخل مملكة الصقليتين منتصراً ، ولكنه لم يدخلها إلا ليجوت بالملاريا (مايو سنة ١٢٥٤) . وتولى مانفرد قيادة قوات الإمبراطور ، وبدد شمل جيش بابوي بالقرب من فوجيا (٢ ديسمبر) . وبلغت هذه الهزيمة مسامع البابا وهو على فراش الموت فمات بائساً مغموماً (٧ ديسمبر) يقول بصوت خافت : « رياه لقد أفسدت الإنسان عقاباً له على ظلمه » .

أما ما بقي من القصة فهو الفوضى السافرة ، فقد شن البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٥٦) حرباً صليبية على لإزليو ، جرح فيها هذا الطاغية ووقع في الأسر ، وأنى أن يعود الأطباء أو القساوسة أو أن يتناول الطعام ، وأمات نفسه جوعاً ، دون أن يتوب أو يقبل منه الاعتراف (١٢٥٩) . وأسر أيضاً أخوه ألبريجو Alberigo ، وكان مثله في وحشيته وجرائمه ، وأرغم على أن يشهد بعينه تعذيب أسرته ؛ ثم انتزع لحمه من جسمه بالكلايب ، وشد وهو لا يزال حياً إلى جواد ؛ وجر على الأرض حتى مات (١٢٩) . واندفع المسيحيون والكافرون وفتند في الأعمال الوحشية ما خلا مانفرد المرح النعل ، وبقى مانفرد طوال الست السنين التالية سيد إيطاليا الجنوبية بعد أن أوقع بالجوش البابوية هزيمة أخرى عند منتابرتو Montaperto (١٢٦٠) . وكان يجد متسعاً من الوقت للغناء وكتابة الشعر « ولم يكن له مثيل على ظهر الأرض » على حد قول دانتي « في العزف على الآلات الوترية » (٥٠) . ولما يتس إربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤) من أن يجد في إيطاليا من يرد مانفرد عن غيه ، وأدرك أن البابوية يجب أن تعتمد من ذلك الوقت على حماية فرنسا إياها ، طلب إلى لويس التاسع أن يقبل ملك الصقليتين إقطاعية من البابا . ورفض لويس هذا العرض ، ولكنه أجاز لأخيه شارل دوق أنجو أن يقبل من إربان « مملكة نابلي وصقلية » (١٢٦٤) . واخترق شارل إيطاليا على رأس ثلاثين ألفاً من الجنود الفرنسيين وبدد شمل جيش مانفرد الذي كان أقل من جيشه عدداً وقفز مانفرد في وسط أعدائه ومات ميتة أشرف من ميتة أبيه . ونزل في العام الثاني صبي في الخامسة عشرة من عمره وهو كترادين Conradin من ألمانيا ليتحدى شارل ، ولكنه هزم عند تجلياكزو Tagliacozzo وضرب رأسه علنا في ميدان السوق بنابلي عام ١٢٦٨ . وانتهى بمقتله وموت إنزويو الذي طال سجنه بعد أربع سنين من ذلك الحين أجل بيت هوهنستاوفن نهاية محزنة ، وأصبحت الدولة الرومانية المقدسة شيئاً لا وجود

له إلا في المظاهر والحفلات ، وانتقلت زعامة أوروبا إلى فرنسا .

واتخذ شارل نابلي عاصمة له ، وأوجد في الصقليتين أرسقراطية وبيروقراطية فرنسيتين ، وأقام فيها جيشاً فرنسياً ، ورهباناً وقساوسة فرنسيين ، وحكم البلاد وجبى الضرائب بوسائل استبدادية جعلت أهلها يتمنون لو بعث فرديريك حيا ، كما جعلت البابا كلمنت الرابع يتمنى لو أن البابوية لم تنتصر . وبينما كان شارل يستعد لقيادة أسطوله لفتح القسطنطينية إذ ثار العامة في بالرم يوم الاثنين التالي لعيد القيامة من عام ١٢٨٢ بعد أن انطلق حقدهم الكامن في صدورهم لأن جنديا فرنسا أساء الأدب مع عزوس صقلية ، وقتل الغوغاء كل فرنسي في المدينة . وليس أدل على الحقد الذي كان يغلي في صدور الصقليين من الوحشية التي كانت تدفع رجالهم لأن يشقوا بسيفهم أرحام النساء اللاتي حملن من الجنود أو الموظفين الفرنسيين ثم يطأون الأجنة الأجنبية حتى تموت تحت أقدامهم^(٥١) .

وحدت مدن أخرى حذو بالرم حتى قتل ثلاثة آلاف من الفرنسيين في مذبحه تعرف باسم « مذبح صلاة المساء » لأنها بدأت في ساعة تلك الصلاة . ولم ينج من القتل رجال الدين في الجزيرة ؛ فقد هاجم الصقليون المعروفون بالتقى والصلاح الكنائس والأديرة وذبحوا الرهبان والقساوسة دون أن يعأوا بكرامة رجال الدين . وأقسم شارل دوق أنجو أن ينتقم من الجزيرة انتقاما لا تنمحى آثاره مدى ألف عام ، وتوعدها بأن يتركها « صخرة صماء جرداء خالية من السكان »^(٥٢) . وحرم البابا مارتن Martin الرابع العصاة من حظيرة الدين وأعلن حربا صليبية على صقلية . ولما عجز الصقليون عن حماية أنفسهم عرضوا الجزيرة على بندرو الثالث صاحب أرغونة . وجاء بندرو إلى الجزيرة بجيش وأسطول وثبت أسرة أرغونة ملوكا على صقلية (١٢٨٢) . وبذل شارل كل ما في وسعه ليسترد الجزيرة ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فقد دمر أسطوله ، ومات وهو منهوك القوى مغموماً حزياً

في فوجيا (١٢٨٥) . واكتفى خلفاؤه بعد سبعة عشر عاما من الكفاح غير
المجدى بمملكة نابلي .

أما المدن الإيطالية القائمة في شمال رومة فقد أخذت تثير الخصام بين
الإمبراطورية والبابوية ، واستطاعت بذلك أن تحتفظ بنوع من الحرية
الطائشة الجموحة . وظلت أسرة دلا توري Della Torre تحكم ميلان
عشرين عاماً حكماً ارتضاه سائر أهلها ، ثم استولت على زمام الأمور عصابة
من النبلاء بزعامة أتوفسكنتى Otto Visconti عام ١٢٧٧ ، وأنشأ آل
فسكنتى الملقبين بالكتباني (الرؤساء) أو الدوتشى duci حكومة أبلخركية
حازمة قديرة حكمت المدينة مائة وسبعين عاماً . وكانت الكوننة ماتلدا
قد أوصت للبابوية بإقليم تسكانيا بما فيه مدائن أرزو Arezzo ، وفلورنس ،
وسينا Siena ، وپيزا ، ولوكا (١١٠٧) ؛ ولكن هذه السيادة البابوية
الصورية قلما كانت تنقص من حق مدائن الإقليم في أن تحكم نفسها أو تولى
عليها من تختارهم من الطغاة .

وكان لسينا كما كان لكثير غيرها من المدن التسكانية ماض تعز به ،
يرجع إلى أيام التسكانين الأقدمين . وكانت غارات البرابرة قد خربت
تلك المقاطعة ، ولكنها انتعشت في القرن الثامن لأنها أضحت محطة وسطى في
طريق الحج والتجارة بين فلورنس ورومة . ونحن نسمع عن وجود نقابات
طائفية للتجار بتلك المدينة في عام ١١٩٢ ثم يمثلها للصناع ثم لأصحاب المصارف ،
حتى أصبح بيت بونسنيورى Buonsignori الذى أنشئ فيها عام ١٢٠٩ من
أشهر المؤسسات التجارية والمالية في أوربا كلها ، وكان له وكلاء في جميع
أنحائها ، وبلغت القروض التي أمد بها التجار ، والمدن ، والملوك ، والبابوات
مبلغاً لا يكاد يصدقه العقل . وكانت فلورنس وسينا تتنازعان السيطرة
على طريق فرنسيسا Via Francesa الذى يصل كليهما بالأخرى ،
وظلت المدينتان التجاريتان محارب كلتاها الأخرى حروبا منقطعة منهكة
من عام ١٢٠٧ إلى عام ١٢٧٠ ؛ وانضمت سينا إلى الأباطرة في الكفاح

القائم بين البابوية والإمبراطورية لأن فلورنس انحازت إلى جانب البابوية ، وكان اننصار مانف د عند متابرتو Montaperto (١٢٦٠) في واقع الأمر نصرأ لسينا على فلورنس . ومع أن أهل سينا كانوا يقاتلون البابا ، فإنهم كانوا يعزون ما نالوه من نصر في تلك الواقعة إلى قديسهم الشفيعة العذراء أم الإله . ووهبوا مدينتهم لمريم إقطاعية لها ، وطبعوا على تقديم تلك العبارة الدالة على الزهو والخلاء وهى *دوت العذراء* ، وضعوا مفاتيح المدينة تحت قدمى العذراء فى الكنيسة الكبرى التى سموها باسمها . وكانوا فى كل عام يحتفلون بذكرى انتقالها إلى السماء ويقيمون لذلك احتفالا رهيباً مشيراً . فقد كان جميع المواطنين من سن الثامنة عشرة إلى سن السبعين يسرون إلى الكنيسة (duomo) فى ليلة العيد ويبد كل منهم شمعة مضاءة فى موكب فخم وراء قساوستهم وكبار موظفيهم ، فإذا أتوا الكنيسة جددوا يمين الولاء والطاعة إلى العذراء . وكان موكب آخر يسير فى يوم العيد نفسه ويتألف من ممثلين للمدن والقرى والأديرة المفتوحة أو التابعة لسينا ، وكان هؤلاء المندوبون يسرون أيضاً إلى الكنيسة يحملون الهدايا ، ويجددون يمين الطاعة والخضوع لحكومة مدينة سينا ولملكها . وكانت سوق عامة تقام فى ميدان المدينة فى هذا اليوم ، ويستطيع الأهليون أن يشتروا فيها بضائع آتية من مائة مدينة ، وبقوم فيها البهلوان والمغنى والموسيقى بأدوارهم ، ولم يكن يزيد عن عدد الذين يؤمون وكر الميسر فى المدينة إلا من يؤمون ضريح مريم نفسها . وكانت الأعوام المائة التى بين ١٢٦٠ ، ١٣٦٠ هى التى بلغت فيها ذروة عظمتها ، وفى هذه السنين المائة شادت كنيستها (١٢٤٥ - ١٣٣٩) ، وأنشأت قصرها العام الدائع الصيت (١٣١٠ - ١٣٢٠) ؛ وبرج الأجراس الجميل (١٣٢٥ - ١٣٤٤) . ونحت نقولو پيزانو Niccolò Pisano فسقية فخمة للكنيسة فى عام ١٢٦٦ ؛ ولم يحل عام ١٣١١ حتى كان دوتشيو دى بيوننسنا Duccio di Buoninsegna قد شرع يزين كنائس المدينة بعدد من أقدم روائع صور النهضة

الزينة . بيد أن هذه المدينة الفخورة كانت تقوم بأعمال لا تختملها
مواردها ، وكان نصر متابرتو ضربة قاضية على سينا ، فقد أصدر البابا
المهزوم قرار الحرمان على المدينة ، وحرّم دخول البضائع فيها أو أداء
الديون لها ، وأفلس عدد كبير من مصارفها ، حتى إذا كان عام ١٢٧٠
ضم شارل دوق أنجو المدينة المعذبة إلى عصبة الجلف (أو العصبة البابوية) .
وظلت سينا من ذلك الحين تسيطر عليها وتفوقها منافستها القوية الفاتحة في
الشمال والتي لا تشعر نحوها بشيء من الرحمة .

الفصل السابع

نهضة فلورنس : ١٠٩٥ - ١٣٠٨

سميت فلورنس بهذا الاسم لكثرة أزهارها ، وقد نشأت قبل المسيح بمائتي عام لتكون محطة تجارية على نهر الآرنو حيث يلتقي برافده المنيون Magnon ، وخربتها غارات البرابرة ، ولكنها استفاقت في القرن الثامن وصارت ملتقى الطرق على فيا فرنسيسا Via Francesa بين فرنسا ورومة . وكانت سهولة اتصالها بالبحر المتوسط عاملا في تشجيع تجارتها البحرية . وأنشأت فلورنس أسطولا تجاريا كبيرا يحمل إليها الأصباغ والحريز من آسية ، والصوف من إنجلترا وأسبانيا ، ويحمل منها المنسوجات إلى نصف بلاد العالم . واحتفظت فلورنس ببعض الأسرار الصناعية التي أمكنت صباغها من أن يلونوا الأقمشة الحريرية والصوفية بظلال من الألوان الجميلة ، لا تلو عليها ألوان أخرى حتى في بلاد الشرق التي برعت في هذه الصناعة من زمن بعيد . وكانت نقابتا الصوف الشهيرتان - وهما نقابة الصوف ونقابة الحارة الخبيثة (*) . تستوردان حاجتهما من الصوف وتجنيان مكاسب طائلة من نسجه وتحويله بضائع جاهزة . وكان الجزء الأكبر من العمل يجري في مصانع صغيرة بعضها في بيوت المدن أو الريف . وكان التجار هم الذين يوردون إليها المواد الغفل ، ويجمعون البضائع التي تباع في الأسواق ، ويدفعون أثمانها قطعة قطعة . وكانت المنافسة القائمة بين الصناع الذين يعملون في منازلهم - وخاصة السيدات العاملات - سببا في بقاء مستوى الأجور منخفضا في هذه

(*) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مركز المعروضات فيها المسمى بهذا الاسم والذي كان من قبل مكانا مخصصا للامارات .

المصانع ؛ ولم يكن يسمح للنساجين بأن يقوموا بعمل إجماعي لرفع أجورهم أو تحسين أحوال أعمالهم ؛ وكانت الهجرة محرمة عليهم . وأراد أصحاب هذه المصانع أن يزيدوا من تأديب الصناع وإرغامهم على حفظ النظام ، فأقنعوا الأساقفة بأن يصدروا رسائل دينية تتلى من فوق المنابر أربع مرات في العام وتنذر العامل الذي يعتاد إتلاف الصوف بغضب الكنيسة وبالحرمان نفسه (٥٣) .

وكانت هذه الصناعة والتجارة محتاجان إلى رموس الأموال لتستثمر فيهما ، وسرعان ما أدى هذا إلى قيام التنافس بين التجار وأصحاب المصارف للسيطرة على الحياة في فلورنس . واستطاع أصحاب المصارف أن يمتلكوا ضياعا واسعة باستيلائهم على الأراضي المرهونة التي يعجز أصحابها عن فك رهونها ، كما أصبحوا ممن لا غنى عنهم للبابوات لسيطرتهم المالية على أملاك الكنائس المرهونة لهم ، وكادوا في القرن الثالث عشر يحتكرون شئون البابوات المالية إيطاليا (٥٤) . ولهذا فإن تحالف فلورنس مع البابوات بصفة عامة في نزاعهم مع الأباطرة كان الباعث عليه هذه العلاقة المالية من جهة وخشية الفلورنسيين من اعتداء الأباطرة والأشراف على حرية البلد والتجار من جهة أخرى . ومن أجل هذا كان رجال المصارف أكبر المؤيدين لحزب البابا في فلورنس ، فهم الذين قدموا المال اللازم لحملة شارل دوق أنجو على إيطاليا إذ أقرضوا البابا إربان الرابع ١٤٨ر٠٠٠ جنيه فرنسي (أي ٢٩ر٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكي) . ولما استولى شارل على نابلي سمح لأصحاب المصارف الفلورنسيين أن يسكوا النقود ويحبوا الضرائب في المملكة الجديدة ، وأن يحتكروا تجارة الأسلحة ، والحديد ، والشمع ، والزيت ، والحبوب ، وتوريد الأسلحة والمؤن للجنود ، كل ذلك ليضمّنوا محصيل قرضهم السالف الذكر (٥٥) . وإذا جاز لنا أن نصدق دانتي ، فإن هؤلاء الفلورنسيين لم يكن لهم ما لأمثالهم في هذه الأيام من ظرف وكياسة ، بل كانوا قناصة للمال ، غلاظا شرهين ، يجنون الأرباح الطائلة بالاستيلاء على الأراضي التي يخلق رهنها ، ويتقاضون فوائد باهظة

عن القروض دون أن يكون لهم وازع من دين أو ضمير - وما أشبههم
بفلكو بوتنارى Folco Potinari متبنى بيتريس Beatrice في ملهاة دانتى (٥٦) .
وكانوا يقومون بأعمالهم في إقليم واسع الرقعة، فنحن نجد مصرفين فلورنسيين -
مصرف برونلسشى Brunelleschi ومصرف ميديشى Medici يسيطران على
الأعمال المالية في نيمر Nimes ، وأمديت فرانزيسى Franzesi الفلورنسى
فليب الرابع بما يحتاجه من المال لحروبه ودسائسه ، وظل المليون الإيطاليون
من بداية حكمه يسيطرون على الشئون المالية الفرنسية حتى القرن السابع
عشر . كذلك استدان إدورد الأول ملك إنجلترا ٢٠٠٠٠٠٠ فلورين ذهبي
(٢٠٠٠٠٠٠ ربال أمريكى) من بيت فرسكوبلدى Frescobaldi
الفلورنسى عام ١٢٩٥ . وكانت هذه القروض معرضة للخطر ، كما كانت
تخضع الحياة الاقتصادية في فلورنس إلى الحوادث النائية التي ليست لها في
ظاهر الأمر أية صلة بها . وعقدت عدة صفقات استثمار سياسية ، وعجزت
بعض الحكومات عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، ثم سقط بنيفاس الثامن وانتقل
مقر البابوية إلى أفينيون (١٣٠٧) فأدى هذا إلى إفلاس عدد من المصارف
في إيطاليا وإلى حلول كساد عام وحرب عوان بين الطبقات :

وكانت ثلاث طبقات تقسم الحياة المدنية غير الدينية في فلورنس :
« الشعب الصغير popolo minuto - ويشمل أصحاب الحوانيت ،
والشعب السمين popolo grasso ويشمل أصحاب الأعمال ورجال
الصناعة والتجارة ، والعظماء grandi أى النبلاء . وكان الصناع يوفون
التقابات الصغرى ويستغلهم في الأعمال السياسية أصحاب الأعمال والتجار
ورجال المال الذين يملأون التقابات الطائفية الكبرى . وكان « الشعب
الصغير » و « الشعب السمين » يأتلغان وقتاً ما للوقوف في وجه الأعيان
في التنافس القائم للسيطرة على الحكومة . وكان هؤلاء الأعيان يطالبون
لأنفسهم بمكوس إقطاعية من المدينة ، وقد أبدوا في أول الأمر
الأباطرة ثم أبدوا البابوات ضد حركات المدينة . ونظمت هاتان الطبقتان

المؤتلفتان جيشاً إقليمياً كان على جميع الصحیحى الأجسام من أهل المدينة أن ينضموا إليه وأن يتعلموا فيه فنون الحرب . فلما تهيأت أسباب القوة بهذا الاستعداد استولوا على قصور الأشراف الحصينة القائمة فى الريف ، ودمروها وأرغموا أصحابها على السكنى داخل أسوار المدينة والخضوع للقوانين البلدية . وكان النبلاء لا يزالون أغنياء بما يحصلون عليه من ريع أملاكهم فى الريف ، فشادوا لهم قصوراً حصينة فى المدن ، وانقسموا أحزاباً ، وأخذوا يتقاتلون فى الشوارع ، ويتنافسون لبروا أى حزب يسبق الآخر لقلب الديمقراطية الضيقة المدى القائمة فى فلورنس وإحلال دستور أرستقراطى محلها . وتزعم حزب الأوبرتى Uberti ثورة قام بها الغلبون ليقيموا فى فلورنس حكومة موالية لفرديريك ، واستبسلت الطبقتان المؤتلفتان فى المقاومة ، ولكن كتيبة من الفرسان الألمان أوقعت بهما هزيمة ساحقة ، وسقطت الديمقراطية الفلورنسية ، وفر زعماء الجلف من المدينة ، وهدمت بيوتهم انتقاماً لما قاموا به من تدمير قصور رجال الإقطاع منذ مائة عام ؛ وجرى الأهلون من ذلك الوقت عقب كل انتصار فى حروب الطبقات والأحزاب على أن يحتفلوا بالنصر بنى زعماء الطبقة المغلوبة ومصادرة أملاكهم أو تخريبها (٥٧) ؛ وظل أشراف الغلبين ثلاث سنين يحكمون المدينة تؤيدهم حامية من جنود الألمان ، فلما مات فرديريك قامت ثورة جلفية من الطبقتين الوسطى والدنيا واستولى الثوار على زمام الحكم (١٢٥٠) وعينوا زعيماً للشعب ليراقب أعمال اليهودستا كما كان الترييونون فى رومة القديمة يراقبون أعمال القناصل . واستدعى زعماء الجلف المنفيون ، وأيدت الطبقات الوسطى المتحصرة ما نالته من نصر داخلى بحروب شنتها على پيزا وسينا للسيطرة على طريق تجارة فلورنس إلى البحر وإلى رومة ، وأصبح أغنياء التجار نبلاء جديداً ، وعملوا على احتكار وظائف الدولة لأنفسهم .

ولما هزم مانفرد وسينا مدينة فلورنس فى متنابرتو أعقب ذلك فرار زعماء

الجلف مرة أخرى ، وظلت فلورنس بعد فراغهم ست سنين يحكمها مندوبيون عن مانفرد . فلما خسرت الإمبراطورية قضيتها في عام ١٢٦٨ عادت السلطة مرة أخرى إلى أيدي الجلف الخاضعين خضوعاً اسمياً لشارل دوق أنجو . وأرادوا أن يقيدوا سلطان الهوستا المعين من قبل شارل فأقاموا إلى جانبه هيئة مؤلفة من اثني عشر من الأثريائي anziani (أي « الأقدمين » أو الكبراء) ليسدوا النصح إلى ذلك الموظف ، ومجلساً مكوناً من مائة عضو « لا ينفذ عمل من الأعمال الهامة ولا يفتق أي اعتماد مالى إلا إذا وافق عليه أولاً » (٥٨) . واغتنمت الطبقات الوسطى الرأسمالية فرصة انشغال شارل « بالملحمة المسائية » فقاموا في عام ١٢٨٢ بانقلاب دستوري أصبحت بمقتضاه هيئة مؤلفة من الرؤساء ومختارة من النقابات الطائفية الكبرى هي المسيطرة بالفعل على حكومة المدينة . وظل منصب الهورستا باقياً في خلال هذه التقلبات ، ولكنه كان مجرداً من السلطان ، لأن السلطة العليا انتقلت إلى أيدي التجار وأصحاب المصارف .

وأعاد حزب الأشراف القدامى المغلوب تنظيم نفسه برياسة كرسو دوناري الرجل الوسيم المتعطر ، وأطلق عليهم لسبب غير معروف اسم « النرى Neri » أي السود ، وسمى النبلاء الجدد أصحاب المصارف والتجار الذين تزعمتهم أسرة شرشي Cherchi باسم البيض Bianchi . وبئس النبلاء القدامى من معونة الإمبراطورية المحطمة فولوا وجههم شطر البابا يستعينونه على الطبقة الوسطى الرأسمالية . ودبر دوناتي Donati ، بوساطة آل سيني Spini وكلائه في فلورنس ، تدبيره مع بنيفاس الثامن للاستيلاء على فلورنس ، وكانت الأحزاب التسكانية قد امتد نفوذها إلى الولايات البابوية فلم تترك لبنيفاس أملاً في إعادة النظام إليها إلا إذا كان له صوت مسموع في حكومات تسكانيا البلدية (٥٩) . وعرف أحد رجال القانون القلويونيين خبر هذه المفاوضات فاتهم ثلاثة وكلاء من أسرة سيني في رومة بجناية فلورنس ، وأدانت الهيئة الحائرة المؤلفه من مندوبي النقابات

الطائفية الكبرى ثلاثتهم (إبريل ١٣٠٠) فهدد البابا من اتهمهم بالحرمان ؛ وهاجمت جماعة من النبلاء المسلحين من حزب دوناتي عدداً من كبار رجال النقابات ، فقررت هيئة المندوبين السالفي الذكر ، وكان دانتي وقتئذ من أعضائها ، نفي عدد من النبلاء متحدياً بذلك البابا (يونية ١٣٠٠) : واستنجد بنيفياس بشارل دوق فالوا Valois وطلب إليه أن يدخل إيطاليا، ويخضع فلورنس ، ويسترد صقلية من أرغونة .

ووصل شارل فلورنس في نوفمبر من عام ١٣١٠ ، وأعلن أنه لم يأت إليها إلا لإعادة النظام والسلم في ربوعها ، ولكن كرسو دوناتي دخل المدينة بعد قليل من ذلك الوقت على رأس جماعة مسلحة ، ونهب بيوت المندوبين الذين نفوه ، وفتح أبواب السجون ، ولم يطلق أصدقاءه وحدهم ، بل أطلق كل من أراد الخروج منها . وساد الهرج والمرج المدينة ، واشترك النبلاء والمجرمون في السرقة ، وخطف الآدميين ، وقتلهم ؛ ونهبت مخازن التجارة ، وأرغمت الوارثات على الزواج من خطاب مفاجئين ، واضطر الآباء إلى إمضاء وثائق ببائتات كبيرة . وأخرج كرسو آخر الأمر هيئة مندوبي النقابات واليهودستا من وظائفهم ، واختار السود مندوبين جدداً يعرضون جميع اقتراحاتهم على زعماء السود ، وظل كرسو سبع سنين حاكماً بأمره لا معقب لحكمه في فلورنس . وحوكم المندوبون المعزولون وأدينوا ، وحكم عليهم بالنفي ومنهم دانتي نفسه (١٣٠٢) ، وحكم على ٣٥٩ من البيض بالإعدام، ولكن أجز لمعظمهم النجاة من الموت بالنفي من البلاد .. وقبل شارل قالوا هذه الحوادث راضياً ، وقبل معها ٤٤٤٠٠٠ فلورين (٨٠٠٠٠٠٠ ريفريال أمريكي) مكافأة له على ما عانى من مشقة ، وغادر فلورنس إلى الجنوب . وفي عام ١٣٠٤ أحرق السود الذين أقلت زمامهم بيوت أعدائهم ، فدمر في هذه الحرائق ١٤٠٠ بيت ، وأصبح وسط فلورنس رماداً وخرائب . ثم تفرق السود

أحزاباً جدداً ، وحدثت أعمال من العنف لاحصر لها طعن فيها دوناتى طعنة أردته قتيلاً (١٣٠٥) .

* * *

وبعد فإن علينا أن نذكر مرة أخرى أن المؤرخ كالصحنى ينزع على الدوام إلى أن يضحى بما هو طبعى وعادى فى سبيل ما هو مسرحى مثير ؛ وأنه لا يرسم أبداً صورة وافية لأى عصر من العصور . لكن من واجبتنا أن نسجل فى ختام هذا الفصل أن إيطاليا كانت تستند فى أثناء هذا النزاع بين البابوات والأباطرة ، وبين الجلف والغبليين ، وبين السود والبيض ، إلى الفلاحين الكادحين ، ولربما كانت حقول إيطاليا فى ذلك الوقت كما هى الآن ميداناً للعمل الزراعى الفنى والجدى ، وأنها كانت مقسمة ومنظمة تسر العين وتطمع الفم . فقد كانت التلال والصخور والجبال تحفر وتدرج لتزرع فيها الكروم ، وأشجار الفاكهة ، وبساتين الجوز واللوز ، وأشجار الزيتون ؛ وكانت الحدائق تسور لمنع عوامل التعرية من اكتساح تربتها والاحتفاظ بالمطر الثمين . وكان فى الحواضر عدد لا يحصى من الصناعات يستوعب الكثرة الغالبة من الرجال ، ولا يترك إلا القليل من الوقت بصرف فى الحطب والانتخابات ، والمدى ، والسيوف . كذلك لم يكن التجار وأصحاب المصارف كلهم رجالاً شرهين قساة القلوب ، وكانوا هم أيضاً ممن جعلوا المدينة تعج بالأعمال وتنمو وتوسع رقعتها لما يضطرم فيها من حمى الكسب إن لم يكن لشيء سواها ؛ وكان فى وسع النبلاء أمثال كورسو دوناتى ، وجيدو كفشكنتى Guido Covalcanti ، وكان جراندى دلا اسكالالا Can Grandi della Scala أن يكونوا رجال ثقافة ، وإن عمدوا إلى سيوفهم من حين إلى حين ليحسموا أمراً من الأمور . وكانت النساء ينخرطن بكامل حريتهن فى هذا المجتمع المرح ؛ ولم يكن الحب فيه لفظاً أجوف يردده الشعراء الغزلون أو يتمشدد به الفلاحون الكادحون ، أو خدمات يؤدها فارس لمعبودته الضئيلة ؛ بل كان

هياماً سامياً حماسياً ينتهى بالاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وبالأومومة
غير المتعمدة . وكان المدرسون في أماكن متفرقة من هذا البحر العجاج
يجاهدون صابرين ليلقنوا المعارف إلى الشباب المحجم عن معارفهم ، والعاهرات
يخففن من شبق الرجال الواسعى الخيال ؛ والشعراء يستعوضون عن آمالمهم
الحائبة بقرض الشعر ، والفنانون يعيشون على الطوى وهم يسعون وراء
الكمال ، والقسيسون ينهمكون في السياسة ويواسون الفقراء والمنكوبين ،
والفلاسفة يجاهدون ليخرجوا من متاهة الأساطير إلى سراب الحقيقة البراق .
وكان في هذا المجتمع دوافع للعمل ، وأسباب لإثارة النفوس ، ولتنافس ،
تقوى أذهان الرجال وألسنتهم ، وتستثير ما لديهم من قوى مختزنة لم يكن
أحد يتوقع وجودها فيهم ، وتغريهم بتمهيد السبيل للنهضة وتهيئة أسبابها .
وهكنا جاء البعث الجديد بعد أن عانت المجتمعات في أوروبا كثيراً من
الآلام ، وأريقت في سبيله أنهار من الدماء .

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXIII

1. Thompson *Middle Ages*, I, 565.
2. Le Strange, *Palestine under the Moslems*, 202.
3. Coulton, *Panorama*, 327.
4. Lacroix, *Military and Religious Life*, 108.
5. Ogg. 282-8.
6. William of Malmesbury, 358.
7. *Chanson de Roland*, II. 848f. in French Classics, Paris, n.d. Lib. Hatier.
8. Munro, D. C., in *N. Y. Herald Tribune*, Apr. 26, 1931.
9. Thompson, *Social and Economic History*, 389.
10. Guizot, *France*, I, 384.
11. Lacroix P. *History of Prostitution*, 904.
12. Guizot, *France*, 338.
13. *Cambridge Medieval History*, IV.
14. Gibbon, VI. 334.
15. *Gesta Francorum*, app.
16. Thompson, *Social and Economic History*, 396.
17. Gibbon, VI, 75.
18. William of Tyre, *Sieg. of Jerusalem*, ch. clxi,
19. In Taylor, *Medieval Mind*, I, 551.
20. Albertus Aquens in Milman, IV, 38a.
21. Thompson, *Economic History*, 397.
22. Archer and Kingsford, *Crusades* 171.
23. Milman, IV, 251.
24. William of Tyre, xxi, 7.
25. Archer 176.
26. Muir *Caliphate*, 587.
27. Guizot, *France*, 427 f; *Cambridge Medieval History*, V. 307.
28. Adams, B. *Law of Civilization and Decay*, 94.
29. In Munro and Sellery, 275f.
30. Lane-Poole, *Saladin*, 176.
31. *Ibid.*, 205f.
32. 232.
33. 236.
34. De Vaux, Carra, *Pensears d'Islam* I, 26.
35. Guizot, *France*, 439f; Gibbon, VI, 119.
36. Lane-Poole. *Saladin*, 307.
37. *Ibid.*, 351f.
38. 357.
39. *Ibid.*
40. De Vau, I, 27.
41. Lane-Poole, *Saladin*, 367.
42. Giraldus Cambrensis, *Itinerary through Wales*, i, 3.
43. Adms, *Civilization and Decay*,
44. Gibbon, ed. Bury, VI. 528.
45. Villehardouin, Introd., xvii.
46. Adams, *Civilization and Decay*, 130.
47. Gibbon, VI. 100.

48. Oman, C. W. C., *Byzantine Empire*, 280-2.
 49. Robert of Clivi in Villehardouin, *Introd.*, xxiv.
 50. Villehardouin, 31.
 51. Jackson, Sir T. C., *Byzantine and Romanesque Architecture*, I I, 101.
 52. Diehl, *Memuel*, 635.
 53. Dalton, *Byzantine Art*, 538.
 54. Gibbon VI. 171.
 55. Beard Miriam, *History of the Business Man*, 109.
 56. Encyclopaedia Britannica, VI. 788; MacLaurin, C., *Mere Mortals*, II, 215f.
 57. Kantorowicz, E. *Frederick II* 185f.
 58. Villehardouin, 177
 59. *Ibid.*, 220.
 60. 320.
 61. Day, Clive, *History of Commerce*, 88.
 62. Hitti 346.
 63. Guizot, *Civilization*, I, 534.
 64. Les, *Auricular Confession*, III, 152.
 65. *Speculum*, Oct. 1938, 391.
 66. In Gibbon., VI. I, 25n.
 67. *Speculum*, Oct. 1938, 403.
 68. Hitti, 665.
 69. Arnold, *Legacy of Islam*, 60.
- CHAPTER XXIV
1. Day, *Commerce*, 57; Pirenne, *Medieval Cities*, 87.
 2. Boissonnade, 173.
 3. Thompson, *Economic History*, 577.
 4. *Speculum*, Apr. 1940.
 5. Boissonnade, 173.
 6. Conlton, *Panorama*, 325.
 7. *Ibid.*, 322.
History, VI. 491.
 8. Beard, 79.
 9. Zimmern, J. W., *The Hansa Towns*, 183.
 10. *Ibid.*, 95.
 11. *Ibid.*, 152, 200.
 12. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 451.
 13. *Id.* *Economic and Social History, of the Middl Ages*, 581.
 14. *Camorage Medieval History*, VI, 478.
 15. Gest, A. P. *Roman Engineering*, 142.
 16. Haskins C. H., *Studies in Medieval Culture*, 101.
 17. Usher *History of Inventions*, 135.
 18. Thompson, *Later Middle Ages*,
 20. Rickard, *Man and Metals*, II,
 21. Salzman, L. F., *English Industries of the Middle Ages*, 1.
 22. Rickard, II. 595.
 23. *Ibid.*, 615.
 24. *Cambridge Medieval History*, VI, 500.
 25. Renard, O., *Guilds in the Middle Ages*, 24.
 26. Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe*, 211.
 27. Thompson, J. W., *Later Middle Ages*, 5.
 28. Boissonnade. 187.
 29. *Ibid.*, 186.
 30. Pirenne, H., *Economic History*, 118.
 31. *Anglo - Saxon Chronicle*, 198.
 32. Schoenhol, J. *History of Money and Prices*, 98.
 33. Jusserand, J. J. *English Way-faring Life, in the middle Ages*. 192.
 34. Boissonnade, 231.

35. Couiton, *Panorama*, 285.
36. Id., *Five Centuries of Religion*, V, 282.
37. Pirenne, *Economic History*, 120
38. Coulton, *Panorama*, 343.
39. Boissonna de, 167.
40. Pirenne, 128.
41. Pirenne, *Cities*, 223.
42. Mathew Paris, *Historia maior*, 1235, I. p. 2.
43. Ashely, *English Economic History and Theory*, I, 201.
44. Pirenne, *Economic History*, 130.
45. Ibid., 135.
46. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 15.
47. Ibid.
48. Id., *Later Middle Ages*, 449; Day, 93.
49. Schoenhof, 63.
50. Ibid., 57; Thompson, *Later Middle Ages*, 432.
51. Adams, *Law of Civilization*, 167.
52. Lacroix, *Manners, Customs, and Dress*. 272.
53. Davis, *Medieval England*, 376.
54. Zimmern, *Hansa*, 165; Thompson. *Later Middle Ages*, 449.
55. Molmenti, *Venice*, Par. I, Vol. I. Vol. I, 149; Thompson, C.G., *Legacy of the Middle Ages*, 441.
56. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 449-50.
57. Aristotle. *Politics*, I, 10.
58. Luke vi, 34.
59. In Ashely. *Economic History and Theory*, I, 126.
60. Ibid., 128.
61. Ibid.
62. 108.
63. 149.
64. 411.
65. Coulton, O.O., *Medieval Scenes*, 146.
66. Ashley, I, 149, 157.
67. Ibid., II, 405.
68. Pirenne *Economic History*, 137.
69. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 638.
70. Coulton, *Medieval Village*, 284.
71. Pirenne *Economic History*,
72. Ashely, I, 198.
73. *Cambridge Medieval History*, VI 491.
74. Thomas Apuinas *Summa Theologica*, II Iiae, Ixxviii, 2.
75. Ashley, I, 196; Coulton, *Panorama*, 336.
76. Boissonnade, 166.
77. Ashely, I, 203.
78. Abbott, O. F., *Israel in Egypt*, 112.
79. Baron, S. *Social and Religious of the Jews* II, 16.
80. Rivoira, G., *Lombardic Architecture*, I, 108.
81. Dorsch, 333.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 484.
83. Thompson *Economic History of the Middle Ages*, 792.
84. Lethaby, W., *Medieval Art*, 145.
85. Richard, E., *History of German Civilization*, 196; Lacroix, *Manners* 271.
86. Saunders, O.E., *History of English Art in the Middle Ages*, 85.
87. Thompson. *Economic History of the Middle Ages*, 493.
88. Id., *Later Middle Ages*, 196.
89. Day, 47.
90. Coulton, *Medieval Scenes*, 92.
91. Walsh, J. J., *Thirteenth the Greatest of Centuries*, 437..
92. Barnes, *Economic History*, 184; Renard, *Guilds*, 87.

93. Ashley, I, 81.
94. Addison J., *Arts and Crafts*, 2.
95. Power, Eileen, and Power, R., *Cities and Their Stories*, 74.
96. Bebel, 59.
97. Villari, P., *Two First Centuries of Florentine History*, 35.
98. Guibert of Nogent, *Autobiography*, 6-bis, 7-9.
99. Pirenne, H., *History of Europe*, 276.
100. Boissonnade, 207; Renard, *Guelds*, 92; Coulton, *Panorama*, 293; Schevill, *Siena*, 68.
101. Barnes. *Economic History*, 162-3.
102. Gay, 51.
103. Headlam. C., *Story of Nuremberg*, 152.
104. Salzman, 335.
105. Pirenne, *Economic History*, 213.
106. Coulton, *Chaucer*, 128; *Medieval Village*, 329.
107. Boissonnade 237.
108. Pirenne, *Cities*, 75.
109. Barnc, *Economic History*, 163.
110. Clapham and Power, 337.
111. *Ibid.*
112. Matthew Paris. I, 11, 42, 48, 156, 164, etc.
113. Coulton, *Panorama*, 456.
114. Porte, *Medieval Architecture*, II, 149.
115. Thompson, *Economic History of the Middle Age*, 801.
116. Quizot, *France*, I, 614.
117. Beard, 85.
118. In Zimmern, *Bansa*, 49.
119. Coulton, *Social Life in Britain*, 11; Schoehof, 125.
120. Rogers J. E. T., *Six Centuries of Work and Wages*, 92; Jusserand, 99; Schoenhof 119.

121. Rogers, 73; Renard 16.
122. Matthew Paris, 1261: *Middle Ages*, I, 270.
123. Munro and Sellery, 496.
124. Pirenne. *Economic History*, 203.
125. Ashley, I. 82.
126. Ralph Higben's *Chronicle*, viii, 145, in Coulton, *Social Life*, 356.
127. Beard, 145.

CHAPTER XVY

1. Benjamin of Tudela in Konroff, *Contemporaries*, 265; Diehl. *Manuel*, 390.
2. *Cambridge Medieval History*, IV, 760.
3. Vasiliev, A. A., *History of the Byzantine Empire*, II, 151.
4. Matt. Paris *Chronica, maiora* 83. *Historia minor*, ril, 38-9, in *Cambridge Medieval History*, IV, 493.
5. Vasiliev, II, 237, 241.
6. Finlay, G., *History of Greece* III, 372.
7. Kluchevsky, I, 185; Pokrovsky, 78.
8. Ramband, I, 96.
9. Vernadsky, G., *Kievan Russia*, 93-5.
10. Ramband, I, 129; Kluchevsky, I 323.
11. Vasiliev, II, 237.
12. Ramband, I, 154.
13. Affirmed by Karamsin, denied by Soloviev cf. Ramband. I, 109
14. Rambaud I, 172.
15. Morey, *Medieval Art*. 166f.
16. *Cambridge Medieval History*, VI, 468.
17. Lönnrot, E., *Kalevala*, I, vii.
18. Rambaud, I. 144.
19. Lützow, *Bohemia*. 44

20. *Cambridge Medieval History*, V, 348.
21. Richard, *German Civilization*, 186; Thompson *Feudal Germany* 161.
22. Richard, 186.
23. Carlyle, R. W *Medieval Political Theory*, V. 88 ; III, 86.
24. Freeman, *Norman Conquest*, II, 181.
25. *Anglo-Saxon Chronicle*, 168.
26. *Ibid.*, 163.
27. Voltaire, *Works* XIII, 274.
28. Hume, D., *History of England*, I, 504.
29. Davis, *Medieval England*, 355 ; IV, 298, 302.
30. Stubbs, *Constitutional History*, I, 303; Freeman, *Norman Conquest*, IV, 430.
31. *Ibid.*, 714.
32. Vinogradoff, P., *English Society in the Eleventh Century*, 472, Coulton, *Medieval Village*, 11.
33. Stubbs, I, 330.
34. Encyclopaedia Britannica, XI, 432.
35. Cf. *Anglo - Saxon Chronicle*, 206-8.
36. Coulton, *Life* III, 5-7 *Panorama*, 229.
37. Pollock and Maitland, I, 104 ; Freeman, *Historical Essays*, 2d. Series, 114.
38. Text in Rowbotham. 62.
39. Coulton, *Panorama*, 231.
40. Hume D., I, 478.
41. Holinshed, *Chronicle*, 18.
42. Ogg., 304-10.
43. Jenks. 35.
44. Pollock and Maitland, I, 138.
45. Encyclopedia, Britannica, VIII, 9a.
46. Draper, *Intellectual Development of Europe*, II, 81.
47. Pollock and Maitland, I, 465.
48. Coulton, *Panorama*, 379.
49. Home, *Roma London*, 118.
50. *Speculam* Jan 1937. 20.
51. Coulton, *Panorama*, 297.
52. Joyce *Ireland* 246-8 ; Hume, I, 356. Cardinal Gaspquet (*Monastic Life in the M. Ages 169*) argues unconvincingly against the authenticity of this bull.
53. In Colton, *Panorama*, 66.
54. Brown, P.H. *History of Scotland* I, 88.
55. Thierry, A , *Conquest of England by the Normans*, I. 21.
56. Blok, P. J. *History of . . . the Netherlands*, I, 230.
57. May, Sir T., *Democracy in Europe*, I, 338-9.
58. Encyclopaedia Britannica, XXI, 912 c.
59. Guizot. *France*, I, 524.
60. *Ibid.* 312.
61. 522.
62. Belloc, *Paris*, 154.
63. Adams, H. *Mont St. Michel and Chartres*, 177.
64. Joinville, *Chronicle*, 153.
65. Lacroix, *Manners*, 32.
66. In Munro and Sellery, 520.
67. Joinville 308.
68. *Cambridge Medieval History*, VI, 347.
69. Joinville, 139.
70. Taylor, H. O. *Medieval Mind*, I, 365.
71. *Cambridge Medieval History*, VI, 349.
79. Joinville, 149.

78. *Ibid.*, 310; Guizot, *France I*, 556; Munro and Selly, 496.
74. Joinville, 316
75. Munro and Sellery, 498.
76. Joinville, 148.
77. Munro and Sellery, 493, 500.
78. Guizot, *France*, I, 543.
79. Joinville 150.
80. Guizot, *Civilization*, I, 148; Lacroix, *From St. Francis*, 140.
81. Coulton, *From St. Francis*, 140.
82. Guizot, *France* I, 452.
83. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 44; Porter, *Medieval Architecture*, II, 264
84. Thompson, 40.
85. *Ibid.* 22.
86. Hearnshaw, F., *Medieval Contributions to Modern Civilization*, 67; Encyclopaedia Britanica, X, 702b; Hearnshaw. *Social and Political Ideas of Some Great Medieval Thinkers*, 145, 157, 163.
87. *Cambridge Medieval History*, VI, 409.
88. Thompson, 349.
89. Chapman, C. E., *History of Spain*, 90.
Carlyl, R. W., *Political Theory*, V. 134.
90. *Cambridge Medieval History* VII, 695 - 702,
91. Pirenne, J., *Les grands courants*, II, 157.
92. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, I, 58.
93. Sterling, M. B., *Story of Parival*, of.
32. 310.
3. Sarton, II (1), 119.
4. In *Waern*. 50f.
5. Bryce. 292.
6. Catholic Encyclopedia I, 749a.
7. Hazlitt, W C, *Venetian Republic*. I, 190f.
8. Molmenti, I (1), 82.
9. *Ibid.*, 841.
10. 145.
11. Thompson, *Economic History of the Later Middle Ages*, 11.
12. Beard, 107.
13. Ruskin, *Stones of Venice*, I, 8.
14. Beard, 102-5.
15. Dante, *Eleven Letters*, 190, letter of March 1314 to Guido
16. Molmenti, I (2), 49, 53.
17. *Ibid.*, 9, 13-15; Sedgwick, H.D., *Italy in the thirteenth Century*, II, 200.
18. Molmenti, I (2), 139, 154, 157.
19. Molmenti, I (1), 204.
20. Beard. 146.
21. Coulton, *From St. Francis*, 215.
22. *Ibid.*
23. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 421.
24. Sedgwick, I, 175.
- Cambridge
Medieval History, V, 230.
26. Kantorowicz, 26.
27. *Ibid.*, 30.
28. *Cambridge Medieval History*, VI, 137.
29. Kantorowicz, 204.
30. *Ibid.*, 219.
31. 282.
32. 310.
- Cambridge *Medieval History*, VI,
150.
34. Kantorowicz, 288.
3. *Ibid.*, 529.
36. Pirenne, J., *Grands courants*, II, 114; Kantorowicz, 311.

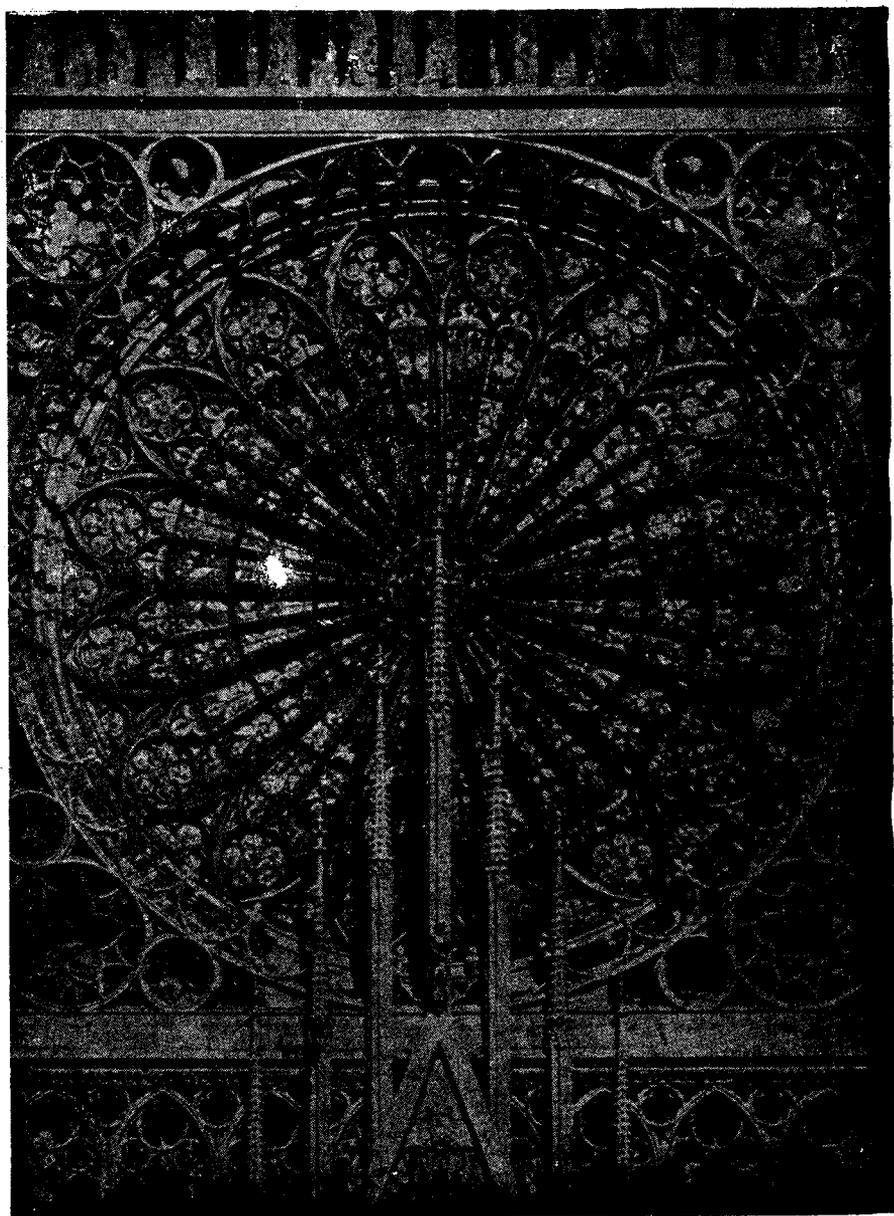
CHAPTER XXXVI

1. In Wern, *Sicily*, 86.
2. *Cambridge Medieval History*. VI, 131.

87. Ibid. 30.
38. 365.
39. 365.
40. Matt. Paris, 1228, 157.
41. Ibid.
42. Sedgwick, I, 133; Kantorowicz, 308.
43. Ibid., 251.
44. 343.
45. 460.
46. 615.
47. 624 - 32.
48. Nietzsche, F., *Beyond Good and Evil*, // 200.
49. Kantorowicz, 611.
50. Sedgwick, I, 440; Kantorowicz, 332.
51. Ibid., 292.
52. Milman, VI, 240f.
53. Renard. 42; *Cambridge Medieval History* VI, 496.
54. Thompson, *Later Middle Ages*, 259.
55. Beard, 140.
56. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 471.
57. Vi lari, *First Centuries of Florentine History*, 178.
58. Ibid , 221.
59. 598.

قصة الحضارة

دائرة معارف كبرى في حضارة العالم من أقصى طرفه الشرقى فى اليابان والصين إلى أقصى طرفه الغربى فى أمريكا ومن أقدم الأزمنة إلى وقتنا الحاضر . وهى أهم مؤلفات الكاتب الأمريكى الكبير ول ديورانت الذى خصها بالجزء الأكبر من حياته ، وطاف من أجلها العالم كله أكثر من مرة . وستألف بعد تمامها من سبعة مجلدات .



(سورة ١) نافذة وردية من كندراية استبرج .